هذا جبريل

جاء ليعلم الناس دينهم

كتبه

أضعف عباد الله وأحوجهم إلى عفو الله

محمد فاضل

خويدم العلماء وتراب أقدام الفقراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المبدئ المعيد، أوحى لرسله التوراة والإنجيل والقرآن المجيد، وبسط من علمه على العباد وجعل منهم الفائد والمستفيد، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي صلاة مقرونة بالمزيد، وعلى آله وأصحابه ذوي العقل الرشيد، أما بعد:

فما من بناء إلا وله أصل وأساس يقوم عليه، وحديث جبريل عليه السلام اشتمل على أصول الدين ومهماته وقواعده، فجميع علوم الشريعة ترجع إليه وتعود عليه بالحيطة والصون، ومن عكف الفكر عليه وجذب الرأي والروية إليه تحامى طريق الإلمام به والخوض في أوشاله وخلجه فضلاً عن اقتحام غماره ولجه، قال الإمام الحافظ أبي العباس القرطبي في كتابه المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: يصلح هذا الحديث أن يقال فيه: إنه أم السنة لما تضمنه من جمل علم السنة كما سميت الفاتحة: أم الكتاب لما تضمنته من جمل معاني القرآن. اهـــ. ولو لم يكن في السنة كلها غير هذا الحديث لكان وافياً بأحكام الشريعة لاشتماله على جملها مطابقة، وعلى تفصيلها تضمناً، فهو جامع لها علماً ومعرفة وأدباً ولطفاً، ولهذا عقدنا الكلام عليه، والذي ذكرناه بالنسبة لما يتضمنه نزر يسير...

الفصل الأول: حديث جبريل عليه السلام

1- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر» قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»، قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت المرأة ربتها، فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة **رءوس الناس**[1] فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله: {إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ}». ثم انصرف الرجل، فقال: «ردوا علي» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا، فقال: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم».

2- عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوني»، فهابوه أن يسألوه، فجاء رجل، فجلس عند ركبتيه، فقال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «لا تشرك بالله شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان»،

---

1 - صحيح البخاري- صحيح مسلم – صحيح ابن حبان – صحيح ابن خزيمة - سنن ابن ماجه – مسند أحمد – مصنف ابن أبي شيبة – مسند إسحاق بن راهويه – تعظيم قدر الصلاة للمروزي – الإيمان لابن منده - السنن الواردة في الفتن للداني – سنن الدارقطني - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - المستخرج من الأحاديث المختارة للمقدسي - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – مسند الحارث – المسند المستخرج على صحيح مسلم – ترتيب الأمالي الخميسية للشجري.

قال: صدقت، قال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث، وتؤمن بالقدر كله»، قال: صدقت، قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: «أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك»، قال: صدقت. قال: يا رسول الله، متى تقوم الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأحدثك عن أشراطها: إذا رأيت المرأة تلد ربها، فذاك من أشراطها، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم **ملوك الأرض**[2] فذاك من أشراطها، وإذا رأيت **رعاء البهم**[3] يتطاولون في البنيان، فذاك من أشراطها في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله»، ثم قرأ: {إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ} قال: ثم قام الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «ردوه علي»، فالتمس، فلم يجدوه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل، أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا».

3- عن أبي هريرة، قال: كان النبي ﷺ بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله وتؤمن بالبعث». قال: ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان».

---

2 - صحيح مسلم – سنن النسائي- مسند إسحاق بن راهويه – تعظيم قدر الصلاة للمروزي – المسند المستخرج على صحيح مسلم لأبي نعيم – الإيمان لابن منده – مسند البزار - ترتيب الأمالي الخميسية للشجري – شرح مشكل الآثار للطحاوي – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي.

3 - صحيح البخاري- صحيح مسلم – صحيح ابن خزيمة - مسند أحمد – مسند البزار – مسند إسحاق بن راهويه –تعظيم قدر الصلاة للمروزي - أمالي المحاملي رواية ابن يحيى - المسند المستخرج على صحيح مسلم لأبي نعيم - الإيمان لابن منده.

قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: متى الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول **رعاة الإبل البهم**[4] في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم تلا النبي ﷺ: {إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ}الآية، ثم أدبر فقال: «ردوه» فلم يروا شيئا، فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم» قال أبو عبد الله: جعل ذلك كله من الإيمان.

4- عن يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين- أو معتمرين- فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني»، والذي يحلف به عبد الله بن عمر «لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر» ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ،

4 - صحيح البخاري.

وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى **الحفاة العراة العالة رعاء الشاء**[5] يتطاولون في البنيان»، قال: ثم انطلق فلبثت مليا، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

5-عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس رسول الله ﷺ مجلسا له، فأتاه جبريل، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ، واضعا كفيه على ركبتي رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، حدثني ما الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تسلم وجهك لله، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله» قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: «إذا فعلت ذلك، فقد أسلمت» قال: يا رسول الله، فحدثني ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن

---

5 – صحيح مسلم – صحيح ابن حبان – سنن الترمذي – سنن ابن ماجه – سنن أبي داود – سنن النسائي – مسند أحمد – الفتن لنعيم بن حماد – الإبانة الكبرى لابن بطة – الشريعة للآجري – تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي – الإيمان لابن منده – السنن الواردة في الفتن للداني- السنن الكبرى والاعتقاد وشعب الإيمان والقضاء والقدر للبيهقي- مسند الفاروق لابن كثير – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي – شرح السنة للبغوي – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – مصنف ابن أبي شيبة – القدر للفريابي – المسند المستخرج على صحيح مسلم لأبي نعيم – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.

بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وتؤمن بالموت، وبالحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنة والنار، والحساب، والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره»، قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد آمنت، قال: يا رسول الله، حدثني ما الإحسان؟ قال رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه، فإنك إن لم تره فإنه يراك» قال: يا رسول الله، فحدثني متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا هو: {إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ} ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك»، قال: أجل يا رسول الله، فحدثني. قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربها، ورأيت أصحاب الشاء **تطاولوا بالبنيان**[6] ورأيت الحفاة **الجياع العالة كانوا رؤوس الناس**[7] فذلك من معالم الساعة وأشراطها». قال: يا رسول الله، ومن **أصحاب الشاء**[8] والحفاة الجياع العالة؟ قال: «**العرب**»[9].

6- عن أبي هريرة، وأبي ذر، قالا: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى رسول الله ﷺ أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه، فبنينا له دكانا من

---

6 – مسند أحمد – الأحاديث المختارة للمقدسي.

7 – مسند أحمد، وفي رواية أخرى في المسند أيضاً [**وعاد** العالة الحفاة رءوس الناس] – مسند الحارث – الأحاديث المختارة للمقدسي.

8 – مسند أحمد – مصنف بن أبي شيبة – المسند المستخرج على صحيح مسلم – الأحاديث المختارة للمقدسي.

9 – مسند أحمد – مسند البزار – السنن الصغير للبيهقي – تعظيم قدر الصلاة للمروزي – أمالي ابن بشران.

طين، كان يجلس عليه، وإنا لجلوس ورسول الله ﷺ في مجلسه، إذ أقبل رجل أحسن الناس وجها، وأطيب الناس ريحا، كأن ثيابه لم يمسها دنس، حتى سلم في طرف البساط فقال: السلام عليك يا محمد، فرد عليه السلام، قال: أدنو يا محمد، قال: «ادنه» فما زال يقول: أدنو مرارا، ويقول له: «ادن» حتى وضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ، قال: يا محمد، أخبرني ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان» قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: «نعم» قال: صدقت. فلما سمعنا قول الرجل صدقت أنكرناه، قال: يا محمد، أخبرني ما الإيمان؟ قال: «الإيمان بالله، وملائكته، والكتاب، والنبيين، وتؤمن بالقدر» قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: صدقت. قال: يا محمد، أخبرني ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: صدقت. قال: يا محمد، أخبرني متى الساعة؟ قال: فنكس فلم يجبه شيئا، ثم أعاد، فلم يجبه شيئا، ثم أعاد فلم يجبه شيئا، ورفع رأسه فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن لها علامات تعرف بها، إذا رأيت **الرعاءَ البُهُمَ**[10] يتطاولون في البنيان، ورأيت الحفاة العراة ملوك الأرض، ورأيت المرأة تلد ربها، خمس لا يعلمها إلا الله، {إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ} إلى قوله: {إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ثم قال: «لا والذي بعث محمدا بالحق هدى وبشيرا، ما كنت بأعلم به من رجل منكم، وإنه لجبريل عليه السلام نزل في صورة دحية الكلبي».

10 – سنن النسائي.

مقدمة

قبل الشروع في بيان الحديث لابد من ذكر أمور ثلاثة:

الأول: معرفة المرحلة الزمنية التي تخص الحفاة العراة، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» وفي هذا الحديث بيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأطوار التي تمر بها أمته وهي: مرحلة النبوة المحمودة المحمدية والرسالة الخاتمية والنيابة الإلهية والكمالات الفائضة الربانية التي انتهت بوفاة سيد الأنام عليه شرائف التحية والسلام. ثم مرحلة الخلافة الراشدة. ثم مرحلة المُلك العاض أو الخير الذي فيه دَخَن، وهي أطول المراحل الزمنية حيث امتدت إلى سقوط الدولة العثمانية. ثم مرحلة الشر المحض، وهي مرحلة المُلْك الجبري وأشراط الساعة والسنين الخدَّاعة التي سقط فيها قرار الحكم والعلم و لم يبق فيها غير الحفظ العام الموعود من الله للأمة وللقرآن على أيدي شيوخ السند والمدد من أهل العترة النبوية والمرتبطين بهم وقد عبر القرآن عن هذه المرحلة بالعلو الكبير لبني إسرائيل في الأرض. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. فهذه المرحلة التي نشهدها أخطر فترة تمر بها الأمة، ومن نجا منها نجا من فتنة الدجال كما جاء في صحيح ابن حبان من حديث حذيفة رضي الله عنه

أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال إنها ليست من فتنة صغيرة ولا كبيرة إلا تتضع لفتنة الدجال **فمن نجا من فتنة ما قبلها نجا منها** وإنه لا يضر مسلماً مكتوب بين عينيه كافر مهجّاة ك ف ر» وإنما خاف صلى الله عليه وآله وسلم الفتنة على أمته في هذه المرحلة التي تَحوَّل الحُكم فيها إلى الحفاة العراة، وأصبح المؤمن طائراً بلا جناح، ومحارباً دون سلاح، يدعو إلى جهاد السفهاء السفال، أئمة النفاق والضلال، وفي الحديث الصحيح: «إن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلون» أي الحكام والعلماء الذين يضلون الناس ويخادعونهم...أخرج الإمام الدارمي عن زياد بن حُدَير قال: قال لي عمر بن الخطاب: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين.

الثاني: بيان أنسابهم واتصالهم بنبي الله إسرائيل لأن في ذريته انحصرت الأمة اليهودية والنصرانية التي تدور عليها آيات القرآن الكريم، وقد عُرف عنهم كتمانهم لأحسابهم وتغييرهم لأنسابهم كما جاء في صحيح الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم شاة فيها سُمٌّ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اجمعوا إليّ من كان هاهنا من يهود» فجمعوا له، فقال: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟» فقالوا: نعم، قال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أبوكم؟**» قالوا: فلان، فقال: «**كذبتم بل أبوكم فلان**» قالوا: صدقت. وقد وصفهم صلى الله عليه وآله وسلم في حديث جبريل عليه

السلام بالبُهُم كما سيأتي بيانه، والبُهُم: مجهولوا الأنساب ومنه أُبهِم الأمر فهو مبهم إذا لم تعرف حقيقته. وفي الحديث المتفق عليه واللفظ للبخاري: «ألا إن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر» والطلوع يُحمل على الاختفاء يقال: طَلَعَ إذا اختفى وغاب وهذا من الأضداد، أي يغيب ويختفي قرنا الشيطان في ربيعة ومضر، وأصحاب ميثاق الدرعية أدعياء، فيدّعي ملوكهم أنهم من ربيعة ويدّعي أحبارهم أنهم من مضر!

الثالث: تحديد البقعة الجغرافية للحفاة العراة، وقد جاءت النصوص النبوية بأحكام خاصة بجزيرة العرب كقوله عليه الصلاة والسلام: «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب» والتي تدلّ على قيام دولة لبني إسرائيل في جزيرة العرب دون الشام أو فلسطين إذ لم يرد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم نصٌ في إخراجهم منها، ولا يمكن تخصيص جزيرة العرب إلا على وجه قيام دولة تحكم الأرض، كما لا يمكن أن يكون الإخراج محصوراً في بقعة واحدة من ديار المسلمين إلا على وجه الخلافة والحكم. وقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم بإخراجهم من جزيرة العرب بعد أن أفسدوا فيها في الوعد الأول، ثم تحقق وعد الآخرة بمجيئهم إليها محشودين بالأمم التي اتحدت لنصرتهم. وبشَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفتح جزيرة العرب في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله».

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ

عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾

في هذه الآيات الكريمة نعتهم الحق تعالى بالصمم والعمى وقد أشار إليهم المفسّر الأعظم والمبيّن الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في حديث سيدنا عمر بن الخطاب من رواية محمد بن نصر المروزي حين ذكر أشراط الساعة فقال: «أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتطاولون في البناء ملوك الناس» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين نعتَّ؟ قال: «هم العرب»[11].

والحديث يكشف عن قادة الفتنة وأئمة النفاق وزعماء الضلالة الذين نقضوا الحكم والعلم وهيمنوا على المال والأعمال! وعليه فيمكن تقسيم علامات الساعة في هذا الحديث إلى ثلاثة أقسام: أحدهما: ما يختص بقبض العلم وهو ما أشار إليه قوله: «إذا ولدت الأمة ربها» والثاني: ما يختص بنقض الحكم وهو ما أشار إليه قوله: «وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس» والثالث: ما يختص بتحكمهم في الاقتصاد والمال والأعمال بقوله: «وإذا تطاول رعاء البهم في البنيان»

وقد جعل صلى الله عليه وآله وسلم معرفة ذلك من صميم الدين وأشار إلى ما طرأ على الإنسانية وعلى الأمة الإسلامية من حبكة الشيطان وأوليائه وهيمنتهم على الأمم والشعوب.

11- تعظيم قدر الصلاة للمروزي.

الفصل الثاني: خصوصية ورمزية نزول جبريل عليه السلام

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ المراد بالرسول الكريم جبريل عليه السلام وناهيك بهذا دليلاً على جلالة مكانه وفضله على الملائكة ومباينة منزلته، والضمير عائد إلى القرآن و لم يسبق له ذكر ولكنه معلوم من المقام في سياق الإخبار بوقوع البعث فإنه مما أخبرهم به القرآن، وفي لفظ رسول إيذان بأن القول قول مرسله أي الله تعالى، وقد أقسم سبحانه بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس لينبه إلى الفرق الكبير بين ما كان عليه الناس في الجاهلية الجهلاء والضلالة الظلماء وبين النور الساطع والضياء اللامع الذي جاء به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وكما أن رحمته سبحانه اقتضت أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم فكذلك اقتضت رحمته وحكمته أن لا يترك عباده في ظلمة الجهل وتيه الغي والضلال بل يهديهم بأنوار النبوة الأحمدية والرسالة المحمدية، ولّما كانوا يصفون سيدنا محمداً بما هو في غاية النزاهة عنه، أبطله مبكتاً لهم مبالغاً في شرفه ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ وهذا النفي المؤكد ثابت له في كل وقت على سبيل الاستغراق، وقد أخبر ﷺ عن الحفاة العراة وأخبر عن مغيبات وأمور مكنونة لا يُهتدى إليها ولا يوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ والضنين مجاز مرسل في الكتمان بعلاقة اللزوم لأن الكتمان بخل بالأمر المعلوم للكاتم، أي ما هو بكاتم الغيب فيزوي بعضه غير مبلغه أو يُسأل تعليمه فلا يُعلمه، وهو الوحي الذي

أطلعه الحق عليه من الحقائق والرموز والإشارات المتعلقة بجميع تفاصيل الدين، فما أخبركم به هو الحق وهو عين ما أوحيناه إليه، وأما معنى ﴿بِظَنِينٍ﴾ وفق القراءة الأخرى فهو مشتق من الظن بمعنى التهمة أي ما هو على المغيبات التي نطق بها بمقتضى الوحي الإلهي وإلهامه بمتهم فيما يحكيه، والمعنى أن ما بلّغه من حقائق الغيب والنبوءات هو الحق لا ريب فيه، فكلامه هو عين ما أخبر الله به ولذلك حَسُنَ العطف في الآية على قوله ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ وهذا رجوع إلى ما أقسم عليه من القرآن بعد أن استطرد بينهما بتلك المستطردات الدالة على زيادة كمال هذا القول بقدسية مصدره ومكانة حامله عند الله وصدق متلقيه منه عن رؤية محققة لا تخيل فيها فكان التخلص إلى العود لتنزيه القرآن بمناسبة ذكر الغيب في قوله ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ فإن القرآن من أمر الغيب الذي أوحي به إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وفيه كثير من الأخبار عن أمور الغيب وعلى وجه الخصوص أشراط الساعة وأخبار الحفاة العراة الذين تدور عليهم آيات القرآن، وتُشد جُلّ خيوطه إليهم، وقد علم أن الضمير عائد إلى القرآن لأنه أخبر عن الضمير بالقول الذي هو من جنس الكلام إذ قال ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾ فكان المخبر عنه من قبيل الأقوال لا محالة، وهذا إبطال لقول المشركين أنه: ساحر وكاهن ومجنون!

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي ليعلم الشيطان وأولياؤه أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطهم، وقُرئ ﴿لِيُعۡلَمَ﴾ على البناء للمفعول. ومعنى الآيات أن حوادث الغيب موجودة في كتاب الله سبحانه، لا يعلمها إلا هو فيجليها ويظهرها لمن شاء ممن يرتضيه من رسول فيسلك من بين يديه ومن خلفه ملائكة يحفظونه، وإذا قلنا بأن المراد من

الرسول هو سيد الوجودات وفخر الكائنات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات فالمراد بالغيب – والله أعلم – عمومه وهذا لا ينافي قوله تعالى ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ لأن المراد: لا أعلم الغيب إلا أن يعلمني الله ويطلعني على الغيب، وقد أطلعه الله عز وجل على المغيبات ومنها: إطلاعه على بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار كما جاء في صحيح البخاري عن طارق بن شهاب قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: «قام فينا النبي ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه» وروى الإمام مسلم عن حذيفة قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه» وروى أبو داود عن حذيفة أنه قال: «والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا؟ والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاث مائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته» وروى الطبراني عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله قد رفع لي الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة كأنما أنظر إلى كفي هذه» ولا يمنع من إطلاع الله تعالى بعض أصفيائه على تلك المغيبات وهذا إنما حصل لهم باتباعهم لرسوله عليه أفضل صلاة المصلّين وأزكى سلام المسلّمين. وقد أخبر الأنبياء والأولياء والمرتضين بشيء كثير من ذلك، وهو داخل تحت قوله ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أشراط الساعة العظمى

العلم قبل القول والعمل فمن وفق للعلم والعمل كان ذلك علامة للسعادة العظمى، قال تعالى ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ والفاء تفريع على قوله سبحانه ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ والضمير للمنافقين أي الأمر الواقع في نفسه انتظار الساعة وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك لأن ما في أنفسهم غير مراعى لأنه باطل. ونظم الكلام: فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم فقد جاء أشراطها، وتقديم جملة ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ يفيد الاهتمام، وجاء التنبيه على أشراطها في الآثار الصحاح المتواترة: «إذا كانت الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها» ونُنبّه على أنه لا بدّ من ارتباط نصوص الكتاب بالسنة بعضها مع بعض حتى تكون منتظمة المباني متسعة المعاني ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد متصل أولُه بآخره، ولا يصلح الاستدلال بحديث إلا بعد استيفاء رواياته وضبط ألفاظه. وقد تَمثّل جبريل عليه السلام في صورة أعرابي، ومرَّة في صورة شابّ، ومرَّة في صورة دحية الكلبي، ولّما أدبر قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» وقد اشتمل هذا الحديث على أصول الدين وكلياته حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه، **وإذا كان مفتاح العلم السؤال فإن جبريل لم يصدر منه سوى السؤال، ومع ذلك سماه معلماً إذ أن الفائدة من الحديث انبنت على السؤال والجواب معاً، فالسؤال نصف العلم**، وهذا الحديث يصلح أن يقال له: أساس الدين لما تضمنه من الفقه والسؤال والنظر والبحث عن الحق واليقين، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «شفاء العِيّ السؤال» وبالسؤال يمكن الوصول إلى اليقين النهائي فإن أبا الأنبياء

عليه السلام لم تمنعه المكانة الرسولية التي تبوأها من السؤال وإعادة النظر، وقد قدمه الخطاب القرآني في حوار يربط بين السؤال والإسلام أو بين السؤال والإيمان محاولاً خلاله إعادة النظر والتقييم للوصول إلى الحق واليقين...والسؤال هو المحرك الأول لفهم الدين من خلال فهم حقيقة الحفاة العراة! وإذا كانت سورة الفاتحة أم القرآن لاشتمالها على المعاني القرآنية والحكم الفرقانية بالدلالات الإجمالية، فإن حديث جبريل عليه السلام هو أم السنة لأنه متضمن لحقيقة الدين بياناً إجمالياً على الوجه الأتم الذي علم تفصيله من السنن النبوية والشرائع المصطفوية على صاحبها ألوف التحية...وفي نزول جبريل بصورة رجل لم يعرفه النبي ﷺ إلا بعد أن وَلّى؛ تنبيه عظيم تَضَمّنَ توجيهاً مباشراً من الذات العلية إلى السؤال والنظر والبحث عن هؤلاء الأعراب، كما في صحيح ابن حبان: «هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم فخذوا عنه فوالذي نفسي بيده ما شُبّه عليّ منذ أتاني قبل مُدتي هذه وما عرفته حتى وَلَّى» وفي سنن النسائي: «لا والذي بعث محمداً بالحق هدى وبشيراً ما كنتُ بأعلم به من رجل منكم وإنه لجبريل عليه السلام نزل في صورة دحية الكلبي» وفي مسند إسحاق بن راهويه: ثم سطع غبار من السماء...وفي مسند الإمام أحمد: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم ما أتاني في صورة إلا عرفته غير هذه الصورة» وفي رواية: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم والذي نفس محمد بيده ما جاءني قط إلا وأنا أعرفه إلا أن تكون هذه المرة» والملاحظ في هذه الرواية أن السائل قال: يا رسول الله إن شئت حدثتك بعلامتين تكونان قبلها، فقال: «حدثني» فقال: إذا رأيت الأمة تلد ربها، ويطول أهل البنيان بالبنيان، وعاد العالة الحفاة رؤوس الناس. وفي رواية للنسائي: قال: يا محمد أخبرني متى الساعة؟ قال: فنَكَس فلم يجبه شيئاً، ثم أعاد فلم يجبه شيئاً، ثم أعاد فلم يجبه

شيئاً، ورفع رأسه فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن لها علامات تُعرف بها، إذا رأيت الرعاء البُهُم يتطاولون في البنيان، ورأيت الحفاة العراة ملوك الأرض» ووصف الرعاء بالبُهُم لأنهم مجهولوا الأنساب، ومنه أُبهِم الأمر فهو مبهم: إذا لم تعرف حقيقته. والتطاول في البنيان: مجاز في السيطرة على الاقتصاد والمال والأعمال! ولا يمتنع حمله على الحقيقة وذلك بالتفاضل في ارتفاع البناء ومساحته وكثرته والتفاخر في حسنه وزينته، وهو مفعول ثان إن جعلت الرؤية فعل البصيرة أو حال إن جعلتها فعل الباصرة، ومعناه أن الحفاة العراة تبسط لهم الدنيا مِلكاً ومُلكاً فيتوطنون البلاد ويستولون على المال ويبنون القصور ويتباهون فيها فهو إشارة إلى تولي الرئاسة من لا يستحقها وتعاطي السياسة والأموال من لا يستحسنها وتناول العلوم من ينقضها ويؤيده ولادة الأمة ربها. وفي رواية عمر عند الإمام مسلم: ثم انطلق فلبثت ملياً، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» وإسناد التعليم إلى جبريل مجازي لأنه كان السبب في الجواب فلذلك أمر بالأخذ عنه، واتفقت الروايات على أن النبي ﷺ أخبر الصحابة بشأنه بعد أن التمسوه فلم يجدوه، ومعنى قوله: فلبثت ملياً أي مكثاً طويلاً، وبينته رواية النسائي: فلبثت ثلاثاً. ورواية الترمذي: فلقيني النبي ﷺ بعد ذلك بثلاث. وكانت هذه الحادثة في آخر عمر رسول الله ﷺ كما دلت رواية عمر بن الخطاب عند ابن منده وأبي عوانة والبيهقي: **أن رجلاً في آخر عمر رسول الله** ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أدنو منك؟ قال: «نعم» قال: فجاء حتى وضع يده على ركبته، فقال: ما الإسلام؟...والروايات المتظاهرة والمتعددة تُبصِّر المسلمين وتبعثهم على الوقوف على حقيقة بني إسرائيل حيث تخللت توجيهات ظاهرة وخفية. والملاحظ في

رواية عمر بن الخطاب أن جبريل عليه السلام صنع صنيع هؤلاء الأعراب فبدأ بالسؤال دون السلام، وقال: يا محمد، دون قوله: يا رسول الله! والظاهر أنه أراد بذلك المبالغة في تعمية أمره حيث تَمثَّل بجفاة الأعراب ولهذا تخطى الناس دون أن يُسَلم حتى انتهى إلى النبي ﷺ...وفي صحيح ابن حبان: قال: ما العالة الحفاة العراة؟ قال: «**العريب**» والمراد بهم الأعراب أهل البادية. وفي مسند البزار: أن جبريل عليه السلام أتى النبي في هيئة رجل شاحب مسافر حتى وضع يده على ركبة النبي ﷺ فقال: ما الإسلام؟...فاستنبط منه أنه يتوجب على المؤمن دراسة واقعهم لما يترتب على معرفتهم معرفة الإسلام والإيمان والإحسان، حيث جعل ذلك من الدين، وهذا حديث عظيم اشتمل على شرح الدين كله، وذلك أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه، ولهذا قال النبي ﷺ في آخره كما في سنن ابن ماجه: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم معالم دينكم» والدين له معالم ومحددات: مدارس "إسلامية" فقهية حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية، ومدارس "إيمانية" عقدية حنبلية وماتريدية وأشعرية، ومدارس "إحسانية" صوفية منضبطة بمدارس العقيدة والفقه، فمن أنكرها أو حاد عنها فقد تسنن بسنن الحفاة العراة. وقد جعل صلى الله عليه وآله وسلم كل ذلك وحدة واحدة وقضية مترابطة لا تنفصل ولا تتجزأ، فلا يمكن أن نفهم العرى الثلاث التي نقضوها: الإسلام والإيمان والإحسان بعيداً عن فهم حقيقتهم...فإنهم نقضوا أولاً: الإحسان المتمثل بجانب التزكية وذلك بالطعن في التصوف بذريعة الخوف على الأمة من الشرك وعبادة القبور والأولياء والصالحين! ثم نقضوا الإيمان المتمثل بالجانب العقدي وذلك بالطعن في الأشاعرة والماتريدية بأكاذيب وافتراءات عليهم لا أصل لها! ثم نقضوا الإسلام المتمثل بالجانب الفقهي وذلك بالطعن في المذاهب الأربعة بأكذوبة فقه الدليل

والعمل بالراجح وأن الحق واحد لا يتعدد وغيرها من الأكاذيب ومنعوا دروس المذاهب الفقهية في المسجد الحرام حيث كانت فيه أربع زوايا لتدريس الفقه واقتصروا تدريس مذهبهم المنحرف لينقضوا فقه السلف بأكذوبة نشر فقه السلف حتى نقضوا الصلاة في كافة شؤونها فقهاً وروحاً! وحين تفترق العقائد والأهداف والغايات هذا الاختلاف فلا مجال حينئذ إلى مشاركةٍ أو تعامل أو علاقة أو تقارب بين المسلمين وبين الحفاة العراة، ومن ثم لا يمكن الجمع بينهما في نظام واحد على الإطلاق، فإما نظام الإسلام وإما نظام أهل الكتاب بكل ما يفرزه من إفرازات نكدة...**وبذلك تتضح غربة الإسلام** التي لا يمكن فهمها بعيداً عن فهم الصم البكم، إذ لا يَعرِف الإسلام من لم يعرف الجاهلية...وفي الإيمان بالقَدَر زاد للمسلم في معركته مع هؤلاء القوم، فلا يتثاقل عن جهادهم، ويمضي في مواجهتهم دون أن تأخذه في الله لومة لائم، ويصبر على ما أصابه من الابتلاءات ويعلم أن ذلك بتقدير الله. ومضمون ما ذكر ﷺ من أشراط الساعة في الحديث يرجع إلى خروج الدجالين الكذابين وانعكاس سائر الأحوال على نحو ما ورد في الحديث عند ابن ماجه: «سيأتي على الناس سنوات خداعات يُصدَّق فيها الكاذب ويُكذَّب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخوَّن فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة» قيل: وما الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه في أمر العامة». ومن علاماتها أن يوضع الأخيار ويرفع الأشرار ويتكلم الجاهل ويسكت العالم ويسود كل قبيلة منافقوها ويعدم الدين بالكلية حيث يقبض العلم ويظهر الجهل، ويعود الحفاة العراة رؤوس الناس إشارة إلى استيلائهم على الأمر وتملكهم البلاد بالقهر والمعنى أن هؤلاء الأذلة ينقلبون أعزة ملوكاً على نحو ما ورد في الحديث عند البزار: «ورأيت الحفاة العراة العالة – يعني العرب – **وَلَوا الناس**» وقد بَيّن ﷺ في هذا الحديث معالم الدين،

وأشار بقوله: «أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» إلى تحكمهم في المال والأعمال! ويمكن حمله على تطاولهم في الدين والوقيعة فيه واستحقار أهله، وفي رواية عند أحمد: «ورأيت أصحاب الشاء تطاولوا بالبنيان» وتعديته بالباء حملاً على تضمين معنى الاستهزاء، أي يستهزؤون بالدين! وفي الحديث استعارة بالكناية حيث شبَّه الدين بقواعد البنيان تشبيهاً مضمراً في النفس ودل عليه ما هو من روادفه ولوازمه وهو البناء، على نحو ما ورد في الحديث: «بني الإسلام على خمس» ونظيره في التنزيل العزيز ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ والآية ضرب مثل للحفاة العراة، أي من أسس دينه على الإسلام خير أم من أسسه على الشرك والنفاق؟ و(خير) اسم تفضيل وهو مستعمل للتهكم بالمنافقين! ولا نرى مثالاً أكثر مطابقة لأمرهم من هذا المثال...ويمكن أن يُحمل التطاول في البنيان على الحقيقة كما تقدم، والذي ينبغي اعتماده أن يحمل المشترك في القرآن والسنة على المعنيين جمعاً بين الحقيقة والمجاز، وكذلك مختلف المحامل التي تسمح بها تراكيب الكلام وإعرابه ودلالته من صريح وكناية وبديع إذا لم تفضِ إلى خلاف المقصود، والنبي ﷺ لكونه أوتي جوامع الكلم واختُصر له الكلام اختصاراً كان حقيقاً بأن يودع في كلامه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ في أقل ما يمكن من المقدار بحسب ما تسمح به اللغة العربية ليحصل تمام المقصود من الإرشاد، ويدل لتأصيلنا هذا ما وقع إلينا من روايات فنرى منها ما نوقن بأنه المعنى الأسرع انسياقاً إلى الذهن ولكنا بالتأمل نعلم أن الرسول الأعظم ﷺ ما أراد إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من كلامه...وخَصَّ «رعاء الشاء» بالذكر لأنهم أضعف أهل البادية ومعناه أنهم من الضعف والبعد عن أسباب القوة والحضارة

فيما يبدو للأنظار بحيث لا يُؤبه لهم ولا يُفطن إليهم ولا تلحقهم الظنون، وفي رواية: «رعاء البَهْم» وهي صغار الضأن والمعز، ومقصوده أن هؤلاء المهازيل سينقلب بهم الحال إلى أن يصيروا ملوكاً مع بُعدهم عن أسباب ذلك. وفي رواية: «الإبل البُهم» بضم الباء أي: السود وهو بجر الميم ورفعها وصفاً للرعاة جمع بهيم فيكون كناية عن حالهم وأنه لا يعود لهم أصل من أبهم الأمر إذا لم يعرف حقيقته، ويمكن حمله على سواد اللون لأن الأدمة غالب ألوانهم أو للإبل جمع بهماء إذ السود شرها عندهم.

والقولُ الفصلُ الذي يرشد إليه الحديث: أن معالم الدين كاملة الأجزاء محكمة الوضع سوية البناء ثابتة الأسس متسقة النظم لا يمكن فصل بعضها عن بعض بل إن الفصل بينها ضربٌ من العبث وفيها بيانٌ لبطلان دين الحفاة العراة بالنسبة إلى الدين الحق، ووصفٌ لما هم عليه من فنون الكفر والنفاق، وهتكٌ لأستارهم، وكشفٌ لأسرارهم وإزاحة لشبههم الواهية بالبينات الواضحة وتنبيه على أن الحجة قد تمت فلم يبق بعد ذلك علة لمتعلل ولا عذر لمتعذر...

وحديث جبريل عليه السلام على وجازته اشتمل على فوائد كثيرة، وعوائد وفيرة، حتى اعتبر أصلاً لعلوم الشريعة، وهو ينبئ عن ميلاد الإسلام، وعن معركة مفروضة على الإسلام، لا خيار للمسلمين في خوضها، ويكشف عن صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً، ولا يمكن فهم الإسلام بوضوح إلا بمراجعة نصوص الكتاب والسنة وفق الواقع التاريخي الحركي لهؤلاء الأعراب، بل من العبث إدراك الإسلام بعيداً عن فهم واقعهم، وفرقٌ بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالب في فراغ، والنصوص في صورتها الحركية...

وكان جبريل عليه السلام قد نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أول البعثة في صورته التي خلقه الله عليها مرتين، وجاءه في مثل صلصلة الجرس، وهو رمزٌ من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقي إليه، على نحو ما ورد في الصحيحين عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، ثم يفصم عني وقد وعيته، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول» وجملة القول أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان معيَّناً بالبلاغ، مهيمناً على الكتاب، مكاشفاً بالعلوم الغيبية، مخصوصاً بالمسامرات القلبية، وكان يتوفر على الأمة حصتهم بقدر الاستعداد، فإن أراد أن ينبئهم بما لا عهد لهم به من تلك العلوم صاغ لها أمثلة من عالم الشهادات، ليعرفوا مما شاهدوه ما لم يشاهدوه، فلما سأل الصحابي عن كيفية الوحي وكان من المسائل العويصة والعلوم الغريبة التي لا يماط نقاب التعزز عن وجهها لكل طالب ومتطلب، ضربَ لها مثلاً بالصوت المتدارك الذي يُسمع ولا يُفهم منه شيء تنبيهاً على أن إتيانها يرد على القلب في لبسة الجلال، فتأخذ هيبة الخطاب بمجامع القلب، فإذا سرّي عنه وجد القول المنزل ملقىً في الروع واقعاً موقع المسموع، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يهتم بأمر الوحي أشد الاهتمام ويهاب مما يطالب به من حقوق العبودية والقيام بشكر المنعم ويخشى على عصاة الأمة أن ينالهم من الله خزي ونكال، فيأخذه الغم الذي يأخذ بالنفس.

وقد نصت الآثار على عداء اليهود لجبريل عليه السلام كما جاء في مسند الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن

لا يعلمهن إلا نبي، قال: «سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه لئن حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتُتابعنّي على الإسلام» قالوا: فذلك لك، قال: «فسلوني عما شئتم» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن...وكان مما سألوه: حدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «فإن وليي جبريل عليه السلام و لم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه» قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: «فما يمنعكم من أن تصدقوه»؟ قالوا: **إنه عدونا!** قال: فعند ذلك قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فعند ذلك ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ الآية. ولا ننسى مرافقة جبريل وميكال لنبينا عليه الصلاة والسلام في رحلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم المعراج إلى السماوات وإلى سدرة المنتهى-كما جاء في سورة الإسراء (سورة بني إسرائيل) وهذا ما أثار حفيظة اليهود على هذين الملكين الكريمين عليهما السلام، وذلك حين ركب النبي ﷺ البُراق وهو دابة أبيض طويل يضع حافره عند منتهى طرْفه، له جناحان في فخذيه يحفز بهما، فانطلق به جبريل وهو عن يمينه وميكائيل عن يساره، وفي رواية عند ابن سعد: وكان الآخذ بركابه جبريل وبزمام البراق ميكائيل. وفي الحديث عند الحاكم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وزيراي من السماء: جبريل وميكائيل». ومعنى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من إخبارات غيبية عن الوقائع الآتية في مرحلة استخلاف بني إسرائيل ثم إساءة وجوههم وزوال ملكهم، والملاحظ أن جبريل عليه السلام في هذا الموقف العظيم تمثل بصورة رجل في جمع غفير من الصحابة. والروايات تُبصِّر المسلمين وتبعثهم على الوقوف على

حقيقة بني إسرائيل حيث تخللت هذه الروايات توجيهات ظاهرة وخفية. وكأن جبريل عليه السلام في هذا الحديث يشير إلى مرحلة جديدة – لا سيما أن الحادثة وقعت بعد حجة الوداع بعد أن تحدد للصحابة مفهوم الدين – يعود فيها الإسلام غريباً كما بدأ غريباً! على نحو ما ورد في صحيح مسلم: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً».

الفصل الثالث: حقيقة الحفاة العراة

قال: فأخبرني عن الساعة.

روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال جبل بن أبي قشير وسَمولَ بن زيد – من بني قريظة – لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول فإنا نعلم متى هي، فأنزل الله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ إلى قوله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقيل نزلت في قريش، وأياً ما كان فإن قريشاً كانت ترجع إلى يهود كونهم أهل كتاب وأعلم بالرسالات السماوية! والدليل على هذه الصلة سؤال قريش عن عدة ملائكة النار، والسؤال مصدره أهل الكتاب ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ وسورة المدثر من أوائل السور نزولاً على المصطفى ﷺ.

أخرج الحاكم في المستدرك عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل لا يقوم إلا لعظيم صلاة.

وما أحوج أمة الإسلام اليوم إلى دراسة واقع هؤلاء القوم، وأن تتلقى من الكتاب والسنة التعليمات في معاركها التي تخوضها معهم، وأن تعلم كيفية الرد على الكيد الخبيث الذي يوجهونه إليها دائبين بأخفى الوسائل وأمكر الطرق.

ولا يمكن لبشر لم يهتد بنصوص الكتاب والسنة أن يدرك المسالك والدروب الخفية الخبيثة التي يتدسس فيها أهل الكتاب الذين استوطنوا جزيرة العرب وتظاهروا بالإسلام وكان منهم رافع بن حريملة وقد قال فيه رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم حين مات: «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين» ومنهم رفاعة بن زيد بن التابوت من بني قينقاع وكان كهفاً للمنافقين! روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدم من سفر فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب فزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بُعثت هذه الريح لموت منافق» فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات. قال ابن هشام: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التابوت مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح. وذلك في العام السادس. و لم يُصلِّ عليه! في الوقت الذي صلى على ابن سلول في العام التاسع ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه قبل نزول آية النهي.

قال تعالى ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾.

وقال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وقال تعالى ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

وقال تعالى ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

وقد واجه المنافقون من بني إسرائيل الإسلام مواجهة نكرة خفية ماكرة، لم يفتروا لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة، وتاريخهم حافل بالمعصية والاعتداء فقد عاندوا الأنبياء وحاولوهم على كتم المواعظ وآذوا موسى عليه السلام وكذّبوا عيسى عليه السلام وعارضوا دعوة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام وصدّوا الناس عن الإسلام!

والقرآن يربط بين قصة آدم مع إبليس وقصة استخلاف بني إسرائيل في سياق واحد واضح واتساق عجيب في الأداء كما يربط بين قصة رفع قواعد البيت العتيق وبين تمكين الله هذا البيت لهم ليحكموا من هذه البقعة كما جاءت في وصية أبيهم يعقوب الذي يخفون نسبتهم إليه ويحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على البيت الحرام وسقاية الحاج وعمارة الحرمين مستمدين من ذلك سلطانهم الديني على المسلمين.

وفي سؤال جبريل عليه السلام: [متى الساعة؟] وجواب النبي ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» دليل على أن الله عز وجل أخفاها كما حكى تعالى ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾.

وحين نتأمل في حديث سيدنا جبريل عليه السلام لا نجد ذكراً للأشراط الأخرى! حيث لم يرد ذكر طلوع الشمس من مغربها أو الدجال أو الدابة أو غيرها وإنما كشف حقيقة الحفاة العراة لأهميتهم البالغة في فهم واقع الملك الجبري وفهم حقيقة بني إسرائيل وهذا يستدعي الوقوف والبحث والنظر والسؤال، ولا يخفى أن أحاديث الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها لم تستدع نزول جبريل عليه السلام في تلك الصورة!

«ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأحدثك عن أشراطها»

انتقل الجواب إلى القضية الأساسية التي نزل جبريل عليه السلام للتنبيه عليها...وفي سورة سيدنا محمد ﷺ بيان وتوكيد ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وفي مطلع السورة حشد وتحريض على قتال أئمة الكفر ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ والسورة نزلت بالمدينة وقد بدت قرون نفاق المنافقين، والقتال موضوعها بل العنصر البارز فيها وهو في جرسها وإيقاعها، وهي إعلان حرب من الله على المستهزئين بدينه وفيها أمر صريح للمؤمنين بإعلان الحرب على المنافقين في صيغة قوية تبشر بالنصر وتنذر بهلاك المنافقين وإحباط صلاتهم وصيامهم وأعمالهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ والسورة تجذب المقلدين بقوة وعنف لتخرجهم من الشرك إلى التوحيد ومن حكم الطاغوت إلى حكم الله، وفيها إنذار لأم القرى ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وآياتها تفضح الحفاة العراة في توليهم الشيطان وتآمرهم مع شركائهم في الأمم

المتحدة وتهددهم بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الموت، وفي السورة تحذير للمؤمنين أن يصيبهم ما أصاب أعداءهم من إحباط العمل نتيجة الشرك ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ والسورة في فواصلها وإيقاعها وجرسها وألفاظها من أولها إلى آخرها تحمل قذائف على المشركين (أعمالهم، أمثالهم، أمعاءهم، فتعسا لهم، دمر الله عليهم...) وفيها تنويه بشأن المؤمنين المسترشدين سبيل الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ وفي مطلع السورة هجوم عنيف سافر على الكفار ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ وسبيل الله المصدود عنها هي الإسلام، والعطف لاتحاد الجامع إذ الآية الأولى مسوقة لذكر جزاء الأشرار، والثانية لبيان ثواب الأخيار مع ما فيهما من الترصيع والتقابل وقد عد التضاد وشبهه جامعاً يقتضي العطف لأن الوهم ينزل المتضادين منزلة المتضايفين فيجتهد في الجمع بينهما في الذهن حتى قيل: إن الضد أقرب خطوراً بالبال مع الضد من الأمثال. روى الشيخان عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً و لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» والمَثَل إذا ورد فى الكلام فإنه يكسبه رشاقة وبلاغة ويصير كالشامة في الوجنة...والمقصود الإرشاد إلى التذكير بالإقبال على كلام الله وتدبره، وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وتعليمه وأن في اللجأ إلى

الكتاب والسنة نجاة وفي المفزع إليهما عصمة، وكلام الله لا يحظى بإجالة النظر فيه والغوص في حقائقه إلا من حرص على استيضاح معجزة رسوله الأكرم ولزم الهيبة وكمال الأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم فإنه قد أوتي جوامع الكلم وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره...وفي الحديث دلالة على إحيائه تعالى الأمة بعد موتها، قال تعالى ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ وفي الآية استعارة تمثيلية بتشبيه حال الكتاب والسنة في هداية التائهين الشاردين بحال الغيث في إحيائه الأرض الميتة.

وفي سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إرشاد إلى التعلم، فالعلم أشرف منقبة وأجل مرتبة، وأبهى مفخر وأربح متجر، به يتوصل إلى توحيد رب العالمين وتصديق عباده المرسلين ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وفي الآية دليل على وجوب العلم بالوحدانية، فلا يجوز تقليد الحفاة العراة لئلا يقع المقلد في الشبه والضلال لأن المطلوب اليقين، ولا يتم العلم إلا بحصول اليقين بعد النظر، وذلك لا يحصل بالتقليد لأن ديدن أهل الكتاب إضلال المسلمين والتلبيس عليهم، ومعنى الآية يرجع إلى تعلم كتاب الله وتعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتعلمه والتصديق بما فيه وجهاد المنافقين والكافرين والمستهزئين به، والإيمان برسوله صلى الله عليه وآله وسلم واتّباعه بعد بلوغه دعوته صحيحة خالية من التشويه، ومحبته ونصرته حياً وميتاً وإعظام حقه وتعلم سنته وتعليمها للناس، ومعرفة عداوة الشيطان حتى يحذر منه المسلم ويتخذه عدواً. والكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن قصد اتباع الحق.

ولّما أرشد الله المؤمنين إلى دلائل التوحيد أعقب بوصف حال المؤمنين في جدّهم في دين الله وحرصهم على ظهوره ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ وكان ذلك يبعث المؤمنين على تمني ظهور الإسلام وفضيحة المنافقين وتمني قتالهم، والله تعالى قد جعل ذلك بآماد مضروبة وأوقات لا تتعدى، والمعنى: لولا أنزلت سورة تتضمن إظهارنا وتكشف لنا أئمة النفاق ورؤوس الكفر وتحضنا على قتالهم...فمدح الله المؤمنين بحرصهم، وإنما عرا المنافقين ما عرا عند نزول أمر المؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهر حالهم، فبهذه المناسبة حُكي تمني المؤمنين نزول بيان شافٍ يلوح به تمييز حال المنافقين الذين بدت قرون نفاقهم، ومقال الذين آمنوا هذا كان سبباً في نزول قوله سبحانه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فالمقصود من السورة التي ذكر فيها القتال هذه السورة التي نحن بصددها.

ووصف السورة بـــ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ باعتبار وصف آياتها بالإحكام وعدم التشابه وانتفاء الاحتمال أي لا تحتمل آيات السورة المتعلقة بالقتال إلا وجوب قتال المنافقين وعدم الهوادة فيه وكل سورة فيها القتال فهي محكمة، وهو أشد القرآن على المنافقين الذين في قلوبهم مرض، ووصفَ الله حال هؤلاء المنافقين عند نزول أمر القتال بأنهم ينظرون نظر المحتضر الذي لا يطرف بصره. ومعنى قوله ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أي أولاهم الله تعالى ما يكرهون أو أدنى الهلاك لهم وهو الموت الذي يكرهونه ويفرون منه، وهي كلمة تقال على جهة الزجر والتوعد، ويحتمل أن يكون المعنى: أولى لهم أن يطيعوا أمر الله ويقولوا قولاً معروفاً لا خديعة فيه، ويناسبه التعقيب بقوله ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ والطاعة تقتضي التوبة

والرجوع إلى أمر الله والقول المعروف يعبر عن طهارة القلب واستقامة الفطرة وموافقة القلب للوجه ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يعني إذا قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، ناقَضوا وتعاصَوا، ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم من المعصية والمخالفة، وهم إنما كذبوا إذ أظهروا للمؤمنين خلاف ما في نفوسهم، وجعل الكذب على المؤمنين كذباً على الله تفظيعاً له وتهويلاً لمغبته، ولما كان هذا تبكيتاً لهم من أجل فتورهم عن أمر الله، سبّب عن ذلك الفتور بيان ما يحصل منه من عظيم الفساد ويتأثر به من خراب البلاد وشتات العباد في معرض سؤال في أسلوب الخطاب بعد التبكيت والتهديد في أسلوب الغيبة تنبيهاً على تناهي الغضب وبلوغه الغاية فقال ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ أي فهل عسيتم إن توليتم عن الإسلام والجهاد أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام؟ والاستفهام مستعمل في التكذيب لما سيعتذرون به ولذلك جيء فيه بـــ"هل" الدالة على التحقيق لأنها في الاستفهام بمنزلة "قد" في الخبر، ثم بيَّن تعالى حالهم فقال ملتفتاً عنهم إيذاناً بالغضب عليهم وإعلاماً بتحقق شقائهم ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ واستعير الصمم لعدم الانتفاع بالمسموعات من آيات القرآن ومواعظ السنة كما استعير العمَى هنا لعدم الفهم على طريقة التمثيل لأن حال الأعمى أن يكون مضطرباً فيما يحيط به لا يدري نافعه من ضارّه إلا بمعونة من يرشده، وكَثر أن يقال: أعمى الله بصره مراداً به أنه لم يهده، وهذه هي النكتة في مجيء تركيب ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ مخالفاً لتركيب ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ إذ لم يقل: وأعماهم! وفي الآية إشعار بأن الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام جرمان كبيران يوجبان اللعنة من الله! ولما أخبر بذلك، فكان ربما سأل من لا يعي الكلام حق وعيه

عن السبب الموجب للعن المسبب للصم والعمى فأجاب بقوله منكراً موبخاً ملوّحاً مهدداً مقرّعاً ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ والمعنى: أن الله خلقهم بعقول غير منتفعة بمعاني الخير والصلاح فلا يتدبرون القرآن مع فهمه أو لا يفهمونه عند تلقيه وكلا الأمرين عجيب! والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن ومن إعراضهم عن سماعه! وحرف ﴿أَمْ﴾ للإضراب الانتقالي والمعنى: بل على قلوبهم أقفال، وإضافة "أقفال" إلى ضمير "قلوب" نظم بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بقلوب المنافقين، ولما أخبر سبحانه وتعالى بأقفال قلوبهم، بيّن منشأ ذلك فقال منبهاً على أولياء الشيطان الذين وُصِفوا فيما تقدّم بمرض القلوب وغيره من قبائح الأحوال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ والإملاء: المدّ والتمديد في الزمان ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيراً أي أراهم الشيطان الارتداد حسناً، وقُرئ بضم الهمزة وكسر اللام ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ بصيغة المبني إلى المجهول على أنه مسند إلى المتكلم فالضمير عائد إلى الله تعالى، أي الشيطان سَوّل لهم وأنا أُملِي لهم فيكون الكلام وعيداً، أي أنا أؤخرهم قليلاً ثم أعاقبهم، على نحو قوله سبحانه ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ والمراد من الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى: منافقوا بني إسرائيل الذين قالوا لكبار كهنتهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم: سنطيعكم في التظافر على عداوة الله ورسوله كما يرشد إليه قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ والفاء في قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، كأنه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل فكيف حيلتهم إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم؟

قال: «أن تلد الأمة ربها»

الرب: المالك والسيد ورب كل شيء مالكه والرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلا بالإضافة وقد قالوه في الجاهلية للمالك، قال الحارث بن حلزة اليشكري في المنذر بن ماء السماء: وهو الرب والشهيد على يوم الحوارين والبلاء بلاء. ومعنى الحديث أن الإماء تلدن الملوك فيُحمل اللفظ على الحقيقة فإن الحفاة العراة لا يستنكفون من وطء الإماء فإذا ملك أحدهم الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربها وقد جاء في رواية مسلم: «إذا ولدت الأمة بعلها» يعني السراري، فحمل على هذه الصورة وقد اشتهر عنهم التسري كما اشتهر عنهم نكاح المحارم والعقوق والعياذ بالله تعالى من الحوب الكبير فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الوطء وغيره وخص بولد الأمة لأن العقوق فيه أغلب، وفي رواية: «أن تلد الأمة ربتها» ليشمل الذكور والإناث. وفيه إشارة إلى نقض العلم والاعتقاد كما جاء في الصحيحين: «من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويظهر الجهل» ويمكن حمله على المجاز فيكون المعنى: إذا توّجت ومَلّكت العَجمُ العربَ من بني إسرائيل، أو يكون المراد الإخبار عن تبدل الحال وانعكاسه وتغيره وانقلاب الأمور فبعد أن كانت أمة الإسلام تحكم الأرض ويدفع لها أهل الكتاب الجزية، أصبحت محكومة تتْبَع بني إسرائيل، يدنّسون مقدساتها ويأكلون فيأها، وبذلك تصير الأعزة أذلة كما دلت القرينة الثانية وهي أن الأذلة ينقلبون أعزة ملوك الأرض فيتلاءم المعطوفان وهذا إخبار بتغير الزمان وانقلاب أحوال الناس بحيث لا يشاهد قبله ويؤيده ما ورد في الروايات الأخرى: «إذا ضيعت الأمانة ووسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» والذي ينبغي اعتماده أن يحمل المشترك على المعنيين جمعاً بين الحقيقة والمجاز، والنبي ﷺ لكونه أوتي جوامع الكلم واختُصر له الكلام اختصاراً كان حقيقاً بأن يودع في كلامه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله

الألفاظ في أقل ما يمكن من المقدار بحسب ما تسمح به اللغة العربية ليحصل تمام المقصود من الإرشاد.

«وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض، فذاك من أشراطها»

فيه إشارة إلى نقض الحكم والاقتصاد! والوصف بالحفاة العراة هو الأبلغ في الدلالة على تفاهتهم وأنه لا يُفطَن إليهم ولا يُؤبَه لهم ولا يُبالَى بهم ولا يُهتَدَى للتحفظ منهم ولا تلحقهم الظنون لبذاذتهم وقلّتهم! ومن هنا يتوجب على المؤمن دراسة واقعهم ومعرفة أحوالهم وفهم حقيقتهم ويتنبَّه على خطرهم وعِظم فتنتهم!

والمقصود مِن وصفهم بالصم البكم بيان أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شر الناس عند الله عز وجل وأنها أخس المنازل لديه، وفي رواية لابن نصر المروزي: «وأن ترى الصم البكم العمي الحفاة رعاء الشاة يتطاولون في البناء ملوك الناس» فقام فانطلق، فقلنا: يا رسول الله من هؤلاء الذين نعت؟ قال: «هم العرب». والمقصود أنهم لم يستعملوا أسماعهم ولا كلامهم ولا أبصارهم في شيء من أمر دينهم، وأطلق ذلك عليهم مع أنهم كانت لهم أسماع وأبصار وألسنة سليمة ولكنهم لّما لم تحصل لهم ثمرات تلك الإدراكات، صاروا كأنهم عدموا أصلها. قال تعالى ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ والغرض المقصود بالآية هم كفرة بني إسرائيل المشار إليهم في الحديث المتقدم...قال الإمام الطبري في تفسيره: وأولى التأويل عندي بالآية التأويل الأول الذي قاله ابن عباس ومن وافقه عليه وهو أن معنى الآية: ومثل وعظ الكافر وواعظه كمثل الناعق بغنمه ونعيقه فإنه يسمع نعقه ولا يعقل كلامه على ما قد بينا قبل فأما وجه جواز حذف

"وعظ" اكتفاء بالمثل منه فقد أتينا على البيان عنه في قوله "مثلهم كمثل الذي استوقد نارا" وفي غيره من نظائره من الآيات بما فيه الكفاية عن إعادته وإنما اخترنا هذا التأويل لأن هذه الآية نزلت في اليهود وإياهم عنى الله تعالى ذكره بها و لم تكن اليهود أهل أوثان يعبدونها ولا أهل أصنام يعظمونها ويرجون نفعها أو دفع ضرها ولا وجه إذ كان ذلك كذلك لتأويل من تأول ذلك أنه بمعنى: مثل الذين كفروا في ندائهم الآلهة ودعائهم إياها. فإن قال قائل: وما دليلك على أن المقصود بهذه الآية اليهود؟ قيل: دليلنا على ذلك ما قبلها من الآيات وما بعدها فإنهم هم المعنيون به فكان ما بينهما بأن يكون خبراً عنهم أحق وأولى من أن يكون خبراً عن غيرهم حتى تأتي الأدلة واضحة بانصراف الخبر عنهم إلى غيرهم، هذا مع ما ذكرنا من الأخبار عمن ذكرنا عنه أنها فيهم نزلت والرواية التي روينا عن ابن عباس أن الآية التي قبل هذه الآية نزلت فيهم وبما قلنا من أن هذه الآية معني بها اليهود كان عطاء يقول: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج عن ابن جريج قال: قال لي عطاء في هذه الآية: هم اليهود الذين أنزل الله فيهم "إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا" إلى قوله "فما أصبرهم على النار". وقد بين الحق تعالى نفاقهم في مطلع السورة الكريمة ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ وهذا إخبار من الله جل ثناؤه عن هؤلاء المنافقين الذين نعتهم الله باشترائهم الضلالة بالهدى وصممهم عن سماع الخير والحق وبكمهم عن القيل بهما وعماهم عن إبصارهما أنهم لا يرجعون إلى الإقلاع عن ضلالتهم ولا يتوبون إلى الإنابة من نفاقهم فآيس المؤمنين من أن يبصر هؤلاء رشداً أو يقولوا حقاً أو يسمعوا داعياً إلى الهدى أو أن يذكروا فيتوبوا من ضلالتهم. وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن عروة بن الزبير قال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي المنافقين لا يعرفون ما عليهم في ذلك من النقمة واتباعه. وقال قتادة في قوله ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾: صم عن استماع الحق، بكم عن التكلم به، عمي عن الإبصار له. قال الإمام القرطبي: وهذا المعنى هو المراد في وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولاة آخر الزمان في حديث جبريل: «وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها» والله أعلم اهـــ. ويؤيده أن الآية وردت في سياق الحديث عن الكفار والمنافقين من الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إلى آخر الآية ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وهذه الإطالة في شرح أحوالهم تكشف عن طبيعة نفوسهم الملتوية المريضة المعقدة وتوحي بضخامة الدور الذي يقومون به للإيقاع بالمسلمين ومدى الفتنة والاضطراب الذي يحدثونه بالمؤمنين، وقد قررت الآيات أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وأنهم يخادعون الله والذين آمنوا، ومعنى صدور الخداع من جانبهم لله: أنهم قصدوا التمويه على الله تعالى! مع أن ذلك لا يقصده عاقل يعلم أن الله مطلع على الضمائر، ولما كانت مخادعتهم المؤمنين لأجل الدِين كان خداعهم راجعاً لشارع ذلك الدين.

وفي التعبير بالصم البكم تشبيه بليغ إذ شبه إعراضهم عن هدي الله ورسوله بالأصم الأبكم ومن اعتراه هذه الصفات انعدم منه الفهم والإفهام وتعذر طمع رجوعه إلى رشد أو صواب، والإنسان الذي دَلّى بنفسه إلى حَضيض تعطيل انتفاعه بمواهبه السامية يصير أحط من البهائم والعجماوات، والمشبهون بالصم البكم هم الذين قالوا ﴿سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ وشبهوا بالصم في عدم الانتفاع بما سمعوا لأنه مما يكفي سماعه في قبوله والعمل به، وشبهوا بالبكم في انقطاع الحجة والعجز عن ردّ ما جاءهم به القرآن فهم ما قبلوا ولا

أظهروا عذراً عن عدم قبوله، وإنما وصَفهم بشر الدواب لأن الخطاب الموجه إليهم في القرآن ظاهر واضح بيّن، والدلالة على أحقّية الإسلام دلالة عقلية بيّنة، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له!

ولفظ الدواب بمجرد إطلاقه يتجه إلى صورة البهيمة في الحس والخيال، والحفاة العراة كذلك، بل هم شر الدواب، فالدواب مهتدية بفطرتها أما هؤلاء فقد عطلوا وسائل الإدراك التي منحها الله لهم وخالفوا المواثيق ونقضوا العهود ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ وهم بنو قريظة ونظراؤهم من بني إسرائيل فإنهم عاهدوا النبي أن لا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدوه، ثم نقضوا عهدهم فأمدوا كفار قريش بالسلاح والعدة يوم بدر، واعتذروا فقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدوه أن لا يعودوا لمثل ذلك فنكثوا عهدهم يوم الخندق، ومالوا مع الأحزاب وأمدوهم بالسلاح والأدراع...وعملهم اليوم جلي واضح، ولذلك جاء الرد الحاسم ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ وكلمة ﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ تشير إلى ما هم عليه من النفاق، وديدن الدجالين إظهار العون والعطف لمن يحاربونهم من المسلمين! وأفعالهم في الشام واليمن اليوم خير شاهد...وقد أوصى النبي ﷺ بإخراجهم من جزيرة العرب، وبعد أن أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عادوا إليها كما أشار حديث جبريل في مسند أحمد: «وعاد العالة الحفاة رؤوس الناس».

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ لما ذكر تعالى حال تلقي أهل الكتاب للقرآن عند نزوله، عرَّج على بيان أن القرآن أُنزل للحكم بينهم. وقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مركب من كاف التشبيه واسم الإشارة، وهو يدل على تشبيه شيء بشيء، والمشبه به

متقرر في العلم مشار إليه مفهوم من السياق، والإشارة للتعظيم وتنزيل البعد الرتبي منزلة البعد الحقيقي أي مِثل ذلك الإنزال البديع الشأن المنطوي على أحوال أهل الكتاب أنزلناه حكماً عربياً، ووجه الإتيان بإشارة البعيد التنبيه على عظم المشار إليه، وتأخير المشار إليه عن الإشارة استعمال بليغ في مقام التشويق، قال صاحب تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: أي كما أنزلنا عليك الكتاب يا محمد فأنكره بعض الأحزاب، كذلك أيضاً أنزلنا الذكر والحُكم حكماً عربياً. اهـــ. وفي كونه عربياً امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء بأنه بلغتهم وفيه تعريض بأفنِ رأي منكريهم...ويجوز أن يكون المعنى: ومثل هذا الإنزال البديع المثال البعيد المنال، أنزلنا الحكم عربياً لتحكم بين المستخلفين بما أراك الله...وهم المعنيون بحديث أمين الوحي جبريل عليه السلام – والله أعلم – على نحو ما ورد في مسند الإمام أحمد: قال – يعني جبريل – يا رسول الله ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال: «**العرب**».

ولّما أراد الله في هذه المرحلة أن يرفع بني إسرائيل ويبسط أيديهم سخَّر لهم الفرس والروم وظفرهم بهم حتى أطاعهم من في سائر جهات الدنيا وانقادوا لهم كما ينقاد الجمل العظيم للصبي الضعيف!

وبعد أن أفصح الحق تعالى عن هذا الكتاب المنطوي على الحكم العربي؛ هيَّجَ على الثبات في الدين وحذر من اتباع أهواء الكافرين فقال ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ والضمير لأهل الكتاب المدلول عليهم بمعونة السياق، والخطاب لسيد المخاطبين عليه صلوات رب العالمين والمراد أمته لوجود عصمته صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك الجواب في سائر ما أشبه هذا المعنى من الآي وكثيراً ما جاء هذا المعنى في القرآن فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم

عبّر به عنهم على عادة العرب في ذلك، والمعنى: ولئن اتبعت أهواءهم بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر ما لك من ولي يشفع ولا واق ينصر ويدفع، وفي ذلك لطف للسامعين وإلهاب للثبات على الدين والتصلب فيه وزيادة تحذير لمن يتبع أهواءهم ويترك الدليل بعد إنارته، وأكّد تعالى التحذير بعشرة مؤكدات وهي: القَسَم المدلول عليه باللام، واللام الموطئة للقسم لأنها تزيد القسم تأكيداً، وإسمية جملة الجزاء، وجَعْلُ حرفِ الشرط الحرفَ الدال على الشك وهو "إنْ" المقتضي أن أقل جزء من اتّباع أهوائهم كاف في الخذلان، والإجمال، ثم التفصيل في قوله ﴿مَا جَآءَكَ﴾ وتبيينه بقوله ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وجعل ما جاء هو العلم كلُه لعدم الاعتداد بغيره لنقصانه، وتأكيد النفي بِمنْ في قوله ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ وتأكيد ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ بعطف ﴿وَلَا وَاقٖ﴾ الذي هو آيل إلى معناه وإن اختلف مفهومه، والمقصود من هذا – والله أعلم – تهييج المسلمين على التصلب في دينهم وتحذيرهم من تمويهات أهل الكتاب ووعيد شديد من الدخول في حُكمهم والرجوع إلى دينهم وتأييس لهم من الطمع في التنازل لهم في شرعتهم ومِنهاجهم ولو أقل تنازل، وأمثال هذه القوارع إنما هي لقطع أطماعهم وتهييج المؤمنين على البراءة منهم. وفي قوله سبحانه ﴿بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ دليل على أن المسلم مكلفٌ بالنظر والاستدلال وإعمال الفكر ونبذ التقليد، وأتى بـــ﴿مَا﴾ لأنها أعم من "الذي" وأشد إبهاماً لشمولها الظاهر والخفيّ، وفي الآية استفظاع لحال من يتبع أهواءهم، والاتّباع: مجاز شائع في الموافقة أي لو وافقت ما يشتهونه ما لك من الله من ولي ولا واق، وهذا بعث للأمة وتهييج على الثبات في الدين والتصلب فيه. فتأمّل أيها المُنصف في معاني الآية فإن فيها أسراراً عجيبة وتنبيهات على أمور عالية لتقف على طرف من

هذا الإعجاز الذي ربما رمت به العقول الضعيفة أو المتعصبة التي لم تؤتِ النظر والبحث حقه.

يا بني إسرائيل

خاطب المولى سبحانه بني إسرائيل في كتابه الكريم وأقبل عليهم بنداء جليل بعد أن مهّد بين يدي ذلك بقصة آدم وإبليس فذكرهم بنعمه وآلائه ليوفوا بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم بتوحيده وعبادته وعدم الإشراك به شكراً على تفضيله لهم ورغبة في العودة إلى مقام التكريم. وقوله ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ خطاب لذرية يعقوب وفي ذريته انحصرت الأمة اليهودية والنصرانية، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: يا أيها اليهود والنصارى لأن من كان متبعاً دين اليهودية والنصرانية من غير بني إسرائيل لا يعتد بهم أصلاً لأنهم تبعٌ لبني إسرائيل يسوقونهم إلى موارد التلف والهلاك فلو آمن بنو إسرائيل لآمن أتباعهم إذ أن المقلد تبع لمقلده. ولأنّ هذا الخطاب للتذكير بنعم الله على أسلافهم فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب وأعقابه مزيد مناسبة لذلك ألا ترى أنه لّما ذكروا بعنوان التديّن بدين موسى ذُكّروا بوصف الذين هادوا، ولّما ذُكّروا بعنوان التديّن بدين عيسى ذكروا بوصف النصارى، وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم لأن ما خوطبوا به هو من التذكير بعهد الله لهم، وعندما يكون الغرض من الخطاب التنبيه على علمائهم نجِد القرآن يعنونهم بوصف ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أو ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وقد يستغنى عن ذلك بكون الخبر المسوق مما يناسب علماءهم خاصة كقوله سبحانه ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فإذا جاء الخطاب بأسلوب شامل لعلمائهم وعامتهم صرف

إلى كل طائفة من الطائفتين ما هو لائق بها. والتفطن لرتب البيان في موارد هذا النحو من الخطاب في القرآن من مفاتيح الفهم وبوادي مزيد العلم.

الفصل الرابع: الإسلام

جبريل عليه السلام يسأل عن الإسلام! والإسلام كان معلوماً للصحابة رضوان الله عليهم، والحديث رواه ابن منده في كتاب الإيمان بإسناده الذي على شرط مسلم من طريق سليمان التيمي في حديث عمر أوله أن رجلاً في آخر عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الحديث بطوله، وآخر عمره يحتمل أن يكون بعد حجة الوداع فإنها آخر سفراته ثم بعد قدومه بقليل دون ثلاثة أشهر مات، فتعيّن أن يتضمَّن الحديث مرحلة استخلاف الحفاة العراة الذين تظاهروا بالإسلام وحصروه في أشخاصهم وأوضاعهم!

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»

وفي رواية: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً» والإسلام لغة: هو الاستسلام والانقياد والإذعان ومنه قوله تعالى ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ وشرعاً: الانقياد للأفعال الشرعية الظاهرة، ومما ينبغي أن يُعلم أن الإسلام بدون إيمان لا ينفع صاحبه في الآخرة وإن عصم ماله ودمه في الدنيا فإن من أقر بلسانه بالشهادتين وأظهر الإسلام وانقاد لما شرعه الرسول من الأحكام وعنده في قلبه أدنى شبهة أو أقل شك في صدق ما جاء به الرسول مما علم ثبوته ضرورة فهو منافق مخلد في جهنم لا يقبل الله منه عملاً ولا يغفر له زللاً وهو أشد من الكافر الصريح وأما من آمن بقلبه و لم يتكلم بالشهادتين في لسانه ومات على ذلك فقد اختلفوا فيه، ومنشأ الخلاف أن النطق بالشهادتين هل هو شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا من النكاح والتوارث ونحوها

غير داخل في مسمى الإيمان أو جزء داخل في مسماه؟ قولان مشهوران، وممن قال بالأول: العلامة الشيخ أبو منصور من الماتريدية والقاضي أبو بكر الباقلاني والأستاذ أبو إسحاق بن مهران من الأشاعرة وروي ذلك أيضاً عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في أحد قوليه، وممن صرح بالقول الثاني: العلامة السعد في التلويح والقاضي عياض في الشفاء. وبقيت هنا فوائد: منها: أن مفتاح الإسلام الشهادة بالإلهية والوحدانية للملك العلام، وبالرسالة لسيد الرسل العظام بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فلو أتى شخص بألفاظ أخرى توازي هذا المعنى كأن قال: أعترف بأن الله معبود بحق لا رب سواه وأصدق بأن محمداً مبعوث من عند الله هل يكفيه ذلك أم لا بد من الشهادتين بلفظيهما؟ ذهب ابن عرفة المالكي إلى الثاني وجزم بمثله بعض متأخري الشافعية معللين بأن الشارع صلى الله عليه وآله وسلم تعبدنا بلفظ "أشهد" فلا بد منه ولا يجزئ لفظ آخر عنه، ونص كثير من الثقات على أنه لا يتعين النفي والإثبات. ومن البديهي أن كلمة الشهادة الشريفة مثبتة الألوهية لله، نافية لها عن جميع ما سواه، مؤكدة في ذلك غاية التأكيد، متضمنة لعقائد التوحيد، ودليل هذه الكلمة وشواهدها من العقل والنقل لا يحصرها إنسان، ولا يحيط بها لسان، كيف لا وكل شيء لو تأملته لوجدته ناطقاً بلسان الحال، بوحدانية الملك المتعال، كما قال القائل:

في كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فوجود ذي الجلال وتفرده في الأقوال والأفعال غني في نفسه عن الاستدلال حتى أن لسان حال الجمادات تشهد بوحدانيته تعالى وتدل أحوالها على ربوبيته وعظمته، تعالى عن أن يحتاج وجوده إلى دليل وبرهان، كيف لا

وهو الباقي وما سواه فان، وهنانذكر تبركاً وتيمناً ما قاله الغوث الأعظم والشيخ المكرم حجة الصوفية ومقتدى علماء الشريعة الأحمدية سيدنا السيد الشيخ محي الدين "عبد القادر الجيلي" نفعنا الله به في كتابه الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل في باب معرفة الصانع عز وجل ليعلم ما وجب عند العلماء رضي الله عنهم من معرفته تعالى وفي ذلك من أسرار التوحيد ما ينور العقيدة ويصلح القلب ويقمع الشيطان ويزهق الباطل وهذا ما قاله الشيخ قدس سره: أما معرفة الصانع عز وجل بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهي أن يعرف ويتيقن أنه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا شبيه له ولا نظير ولا عون ولا شريك ولا ظهير ولا وزير ولا ند ولا مشير له ليس بجسم فيمس ولا بجوهر فيحس ولا عرض فيقضى ولا ذي تركيب أو آلة وتأليف وماهية وتحديد وهو الله للسماء رافع وللأرض واضع لا طبيعة من الطبائع ولا طالع من الطوالع ولا ظلمة تظهر ولا نور يزهر حاضر الأشياء علماً شاهد لها من غير مماسة عزيز قاهر حاكم قادر راحم غافر ساتر معز ناصر رؤوف خالق فاطر أول آخر ظاهر باطن فرد معبود حي لا يموت أزلي لا يموت أبدي الملكوت سرمدي الجبروت قيوم لا ينام عزيز لا يضام منيع لا يرام فله الأسماء العظام والمواهب الكرام قضى بالفناء على جميع الأنام فقال ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وقال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ خلق الخلائق وأفعالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا مقدم لما أخر ولا مؤخر لما قدم أراد العالم وما هم فاعلوه ولو عصمهم لما خالفوه ولو شاء أن يطيعوه جميعاً لأطاعوه يعلم السر وأخفى عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير هو المحرك هو المسكن لم تتصوره الأوهام ولا تقدره الأذهان ولا يقاس

بالناس جل أن يشبه بما صنعه أو يضاف إلى ما اخترعه وابتدعه محصي الأنفاس القائم على كل نفس بما كسبت منفرد بالقدرة على اختراع الأعيان وكشف الضر والبلوى وتقليب الأعيان وتغيير الأحوال كل يوم هو في شأن يسوق ما قدر إلى ما وقّت...إلى غير ذلك مما قاله رضي الله عنه. وذكر الإمام العلامة والبحر الفهامة شيخ الشيوخ جلال الدين السيوطي في كتابه "الكنز المدفون والفلك المشحون" صانع العالم قادر والدليل عليه: استحالة وجود العقل ممن ليس بقادر، ثم هو على كل مقدور قادر كما هو بكل معلوم عالم لأن فعله محكم متقن والفعل المحكم يدل على أن فاعله عالم، صانع العالم مريد لأن فعله مترتب فلا بد أن يكون قاصداً إلى تقديم ما قدم وتأخير ما أخر وهو سبحانه حي لأن من شرط القادر العالم المريد أن يكون حياً فإن الموت ينافي هذه الصفات والدليل على أنه سميع بصير أن السمع والبصر صفتا مدح وفي نفيهما نقص لا يرتفع ذلك النقص إلا بثبوتهما والنقص في صفاته تعالى محال، علم القديم سبحانه وتعالى ليس بكسب ولا ضرورة لأن ذلك من سمات المحدث والدليل على أنه متكلم أنه ملك والملك يصح منه الأمر والنهي والوعد والوعيد وكلامه قديم لو لم يكن له في الأزل كلام لكان بضد الكلام موصوفاً ولو كان ضد كلامه قديماً لم يجز أن يكون له في الأزل كلام وذلك محال لما ذكرناه، كلام الباري جل وعلا ليس بعربي ولا بسرياني ولا عبري لأن هذه أوصاف اللفظ المركب من الحروف وكلامه ليس بحروف، قراءة أحدنا للقرآن ولفظه وأصواته كلها مخلوقة والمقروء غير مخلوق فالمقروء كلام الله القائم بذاته والقراءة مرة تكون طاعة ومرة تكون معصية إذا كان القارئ جنباً ومرة تطيب ومرة لا تطيب ومرة تزيد ومرة تنقص، كلام الله سبحانه وتعالى يشتمل على أمر ونهي وخبر واستخبار وخطاب ونداء ووعد ووعيد وقصص وأمثال وناسخ

ومنسوخ ووعظ ووصية وتنبيه وتهذيب، لا يقال صفات الباري سبحانه وتعالى القائمة بذاته تخالفه ولا يقال إنها توافقه لأن الموافقة والمخالفة فرع للغيرية والتغاير بينه وبين صفاته محال ولا يقال لصفاته القديمة إنها مع الله بل هي مختصة بذاته سبحانه وتعالى قائمة به، الباري سبحانه وتعالى قادر على إعادة ما عدم من الموجودات جواهرها وأعراضها لأن الإعادة في معنى الابتداء من حيث إنه موجود عن عدم لا فرق بين الإرادة والمشيئة فكل ما شاءه الباري فقد أراده وما أراده فقد شاءه دليله أنه لا يقال أردت وما شئت وشئت وما أردت وهو سبحانه وتعالى مريد لجميع ما يجري في سلطانه من خير وشر ونفع وضر وطاعة ومعصية وسفه وحكمة ولأنه لو حدث حادث في ملكه من غير إرادته لحقه النقص وذلك محال في حقه سبحانه وتعالى، العبد مستطيع لأكسابه بدليل أنه يجد الفرق بين ما هو عاجز عنه وقادر عليه بالضرورة، لا واجب على الله بوجه لأن الواجب يقتضي موجباً والموجِب فوق الموجَب عليه وليس أحد فوق الباري سبحانه وه جل وعلا يجوز له أن يفعل في ملكه ما يشاء لأنه مالك على الإطلاق، الطاعات علامات الثواب لا عللها والمعاصي أمارات العقوبة لا عللها لأن القديم سبحانه وتعالى يستحيل أن يستحق عليه شيء، الحسن ما لفاعله أن يفعله والقبيح ما ليس لفاعله أن يفعله والظلم وضع الشيء في غير محله ودليل هذه الجملة: اطراد هذه المعاني وانعكاسها في معانيها، الواجبات كلها سمعية ليس فيها شيء عقلي، دليله أن العقل عرض ويستحيل أن يقال: إنه موجب، انتهى بحروفه. واعلم أن كلمة لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد وهي الشاهدة بوحدانية الحميد المجيد وهي كلمة الإيمان بالله والجامعة للقلب مع الله والنافية لغير الله والمزكية لنفوس أهل الله والمخلصة لأسرار أحباب الله والمطهرة لقلوب أولياء الله والقامعة لعدو الله إبليس لعنه الله ولذلك

ورد أنها تجعل في جنب إبليس مثل الأكلة في جنب بني آدم، ولهذه الكلمة الشريفة آثار عجيبة وأسرار غريبة، منها: أن جميع حروفها جوفية وفي ذلك إشارة إلى أنه ينبغي للذاكر أن يأتي بها من خالص جوفه ليشهد حلاوة مبانيها ولذة معانيها، ومنها: أنها مجردة عن جميع الحروف المعجمة إشارة إلى أنه ينبغي للذاكر بها أن يكون مجرداً عن الأغيار مراقباً للفاعل المختار، ومنها: أنه هذه الكلمة المنوه بذكرها والمشار إلى علو قدرها جاءت على اثني عشر حرفاً وشهور السنة اثنا عشر شهراً وأفضل حروفها أربعة وهي حروف لفظ الجلالة وكذلك أفضل الشهور أربعة والإشارة في ذلك إلى أن من قالها كفرت عنه ذنوب العام وغفر الله تعالى لقائلها ما أوقعه فيه من الذنوب والآثام ولأجل ما لها من علو الشأن نطق بها القرآن، وقد قدم ذكر التوحيد على الأمر بالعبادة لأنه الأساس الذي تنبني عليه العبادة فإن غير الموحد لا تصح له عبادة ولئلا يتوهم متوهم وجود شيء معه يعبد أو يرجى ويقصد وأنه تقدست أسماؤه هو الإله الفرد الباقي الذي يلتجأ إليه ويُعول في كل الأحوال عليه لم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل فيوقن أنه ينبغي لكل موحد أن يكبره تكبيرا، وكان القصد من قوله عليه الصلاة والسلام "شهادة أن لا إله إلا الله" التبري مما قاله أهل الشرك بالكلية والعلم المحض بأنه هو الإله الدائم الأبدي الأزلي لا سواه، شهادة مرئية شمس برهانها ببصر البصيرة لا يدنس لوث الأغيار لها سريرة، واعلمْ أيها الشاهد أن كلمة لا إله إلا الله تقتضي أن محمداً رسول الله، وذلك أن بيان كلمة التوحيد إنما يكون بواسطة رسول من الله، فإرسال محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو المقتضى المحتم من كلمة لا إله إلا الله، كما أشار الحديث المتفق عليه: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» ولم يقل هاهنا: وأن محمداً رسول الله لتضمن هذا القول الشهادة له

صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة لأن قول العبد: لا إله إلا الله هو عين إثبات رسالته. وتحقيق قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام أن تعبد الله» إنما يكون ببيانه صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاده، والعبادة مردودة إذا لم تكن من بابه، وكل قادم لا يقدم من طريقه محروم فإن الأعمال معروضة عليه كما جاء في مسند البزار: «تُعرَض عليَّ أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه وما رأيت من شر استغفرت الله لكم» وروى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب قال: ليس من يوم إلا وتعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعمال أمته غدوة وعشياً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم. وإذا كان الإسلام أن تعبد الله فإن الجهاد هو السعي لإيقاف كل واحد عند حد العبودية بأداء الحقوق الواجبة على الهيئة البشرية وإرجاع كل متجاوز أدبه إلى ما شرعته له الشريعة من الحد والمرتبة، واعلم أن في قول "لا إله إلا الله" نفي الأغيار فإذا ذاق قائل هذه الكلمة كأس حكمتها رجع عن غرور نفسه وعلم أنه كغيره وأن الفناء مرجعه وإليه مآله فلا يعلو في الأرض ولا يتكبر ولا يفسد...وفي قول "محمد رسول الله" سر الشكر والاعتراف بحقه عليه الصلاة والسلام على أن هدانا بأمر الله وأنقذنا برسالته المحمدية وشريعته الغراء الأحمدية من الظلمات إلى النور وجعلنا شهداء على العرب من بني إسرائيل ألا ترى أنه لما اجتمع أشراف قريش قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم» فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات، قال: «تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه» فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن أمرك لعجب! وقوله "تملكون بها العرب" أراد بني إسرائيل وإلا فإن غيرهم من العرب كانوا تبعاً لقريش. لقد عرف القوم أن كلمة التوحيد تعني الانقياد

لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وتقرير سلطان الله وحكمه في الأرض، هكذا أدرك من قبل فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة! وكذلك يدركها الفراعنة الجُدد! وقد قال الرجل العربي بفطرته وسليقته حين سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الناس إلى التوحيد: هذا أمر تكرهه الملوك! وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته: إذن تحاربك العرب والعجم! لقد أدرك وفهم مدلول كلمة التوحيد، وأنها ثورة على الحاكمين الظالمين! ومن هنا كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جديتها في حسّ العرب لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً! وقد مكث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة ثلاثة عشر عاماً يبلغ دعوة الإسلام حتى تكونت العصبة المؤمنة التي صبرت على إسلامها وهاجرت فراراً بدينها وجاهدت بالمال والنفس لإقامة دولة الإسلام ثم دخل الناس في دين الله أفواجاً، فكلمة التوحيد تعني زوال حكم وإقامة حكم جديد، زوال وضع سلطوي جاهلي وقيام وضع سلطوي تكون فيه السلطة العليا لله تعالى وحده، وهنا لا بد من الربط بين شهادة أن لا إله إلا الله وبين دولة الحفاة العراة التي قامت على اتخاذ الشركاء في الأرض. روى الواقدي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل: لا إله إلا الله وادخلوا الباب سجداً، قال: باب بيت المقدس، فدخلوا من قبل أستاههم، وقالوا: حبة في شعيرة» وهذه أفعال المستهزئين فإن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو الإصرار على خلافه أو بدل منه!

لقد أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأخذ عليهم العهد بتوحيده تعالى فقال ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ وهذا أول نداء عُلوي لبني

إسرائيل في ترتيب المصحف، والمراد بالعهد هاهنا – والله أعلم – العهد المأخوذ عليهم بالإقرار بوحدانية الله في الحكم والعبادة والإقرار بربوبيته والاعتراف بإلهيته والتصديق برسله واتّباع السيد الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا هو دين الإسلام الذي جاءت به الرسل جميعاً وسار موكب الإيمان يحمله شعاراً له على مدار تاريخ البشرية، وهذه هي الأَحَدِية المطلقة في أعرض خطوطها الرئيسية، فقد أخرج الإمام مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «بني الإسلام على خمسة، على أن يوحّد الله» وفي رواية: «على أن يعبد الله ويكفر بما دونه» الحديث. والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب وأفسدت عقيدتهم وفطرتهم وحياتهم؛ نشأت أول ما نشأت عن انطماس هذه الصورة وتحريفها. وفي حديث جبريل من رواية أبي هريرة قال رسول الله ﷺ «لا تشرك بالله شيئا» وإذا أردنا أن نفهم طبيعة الشرك بشكل واضح فلا بد من استقراء النصوص القرآنية المتعددة في المراحل التاريخية المتجددة ولا نخلط بين دلالالتها. لقد خاطب القرآن طبقتين من الناس وهما: طبقة الملأ، وطبقة الشعب، وقد دأب الملأ على استعمال وسيلتين أساسيتين لإخضاع الشعوب، الأولى: قهرية سلطوية وهي الجند والعسكر والشرطة بمختلف تشكيلاتها، والأخرى: روحية تلقائية تتمثل في الدين، ثم إن الملوك الجبابرة يسعون أبداً إلى كتمان وتحريف الشرائع الإلهية لأنها تتعارض مع مصالحهم وتمنعهم من التسلط على رقاب العباد، لذلك يتواطأ الملوك والأباطرة مع الكهان والرهبان ليكيّفوا الشرائع وفق أهوائهم ويغرقوا الشعوب في شرك العبادة ويقنعوها أن هذا هو الدين الحق فيخضع الناس للسلطة الروحية ولنظام الدولة طواعية، وصرفُ الشعائر التعبدية للأوثان هو من عمل طبقة الحكام بالشراكة مع الكهان وبالتوافق على مضامين الشرك ومعانيه، وأما تظاهرهم بالتوحيد في جانب

علاقتهم مع أهل الحق فلا يعدو كونه مراسيم رسمية لخداع الأمة المسلمة، والشرك الذي عليه الحكام هو الشرك في الحكم ولذلك نجد خطاب الأنبياء والرسل للحكام والملإ يدور حول تحقيق الربوبية والألوهية لله وعدم منازعته تعالى الحكم والسلطان، وأما خطابهم للأتباع فيدور حول قضيتين مركزيتين: الأولى: جهاد الحكام الجبابرة وعدم الخضوع لهم لأنهم معتدون على سلطان الله تعالى الذي استحقه بصفات الكمال والجلال ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخالق الرازق المحيي المميت هو الذي يستحق أن يكون صاحب السلطة العليا في الأرض، والأخرى: مفاصلة الحكام في منهاجهم، ونبذ أديانهم الباطلة ومعبوداتهم الزائفة التي لا تنفع ولا تضر، فدعوة الرسل هي حركة ثورية هدفها نزع الحكم من ملوك الأرض وإعادته إلى الرب الحق وإخراج الناس من الخضوع للملوك والأرباب البشرية وإخضاعهم لملك الملوك، ولذلك نجد أن مشكلة الرسل والأنبياء لم تكن أصالة مع الشعوب بل كانت مع الملإ والحكام، وهذا المعنى ورد في آيات عديدة ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وعليه فإن الشرك الذي يخص الحكام هو الشرك في الحكم، قال تعالى ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ وقُرئ بكسر النون ﴿تُشَٰٓقُّونِ﴾ أي تنازعونِ فيهم الحكم في الأرض، والمعنى أنه في مشهد يوم القيامة يقف الملوك موقف الخزي أمام مالك المُلك يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟» وقد اتخذ بنو إسرائيل شركاء في الحكم من الإنس والجن يستنصرون

بهم ويبتغون عندهم العزة والغلبة، ودليل إشراكهم الجن قوله تعالى ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ ولما كان شركاؤهم من الجن هم الذين حملوهم على الشرك وقاموا بتسخير الإنس لهم، نبّه صلى الله عليه وآله وسلم على خطرهم وبيّن مكان طلوع أوليائهم كما جاء في الصحيحين: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» والمراد بالفتنة: الشرك والكفر بدليل قوله في الرواية الأخرى عند الإمام أحمد: «إن الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» وقرن الشيطان: حزبه وأولياؤه وهم بنو إسرائيل وهذا واضح لمن تأمّل أشتات قصتهم في القرآن، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر النبي ﷺ: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا» قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا؟ قال: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا» قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا؟ فأظنه قال في الثالثة: «هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان» أي: هناك البلايا والأمور العظام! هناك أولياء الشيطان! هناك رؤوس الكفر! هناك صناديد الشرك! هناك قادة النفاق! هناك أئمة الضلال! هناك تُسطّر الأديان الباطلة! هناك تُدوَّن العقائد الزائغة والمناهج المنحرفة! هناك تكتب المواثيق الجائرة! هناك تُدبّر المصائب لأمة الإسلام! وفي خطة ماكرة تم إقامة خمس دول خليجية مأجورة على أطراف جزيرة العرب لذرّ الرماد في العيون وصرف الأنظار عن أصل الداء والعلة...وروى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: قام النبي ﷺ خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال: «هنا الفتنة -ثلاثاً - من حيث يطلع قرن الشيطان» وفي صحيح الإمام مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فقال: «رأس الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» يعني المشرق. وفي الصحيحين: «رأس الكفر نحو المشرق» والمعنى أن رياسة الكفر

ومَنشأ اليهودية والنصرانية في أُمّة تطلع نحو المشرق، أراد نجد وهي مشرق المدينة.

قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ وقد وردت هذه العبارة في آيتين من سورة النساء، الأولى: تشير إلى إشراكهم آلهة في العبادة، والأخرى: تشير إلى إشراكهم في الحكم وهذا من الدقائق فتنبّه له، والكلام في الآيتين متصل بقوله ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ ثم استطراد بذكر قرن الشيطان ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ وجاء التذييل في الآية الأولى بقوله ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ تنبيهاً على عِظم الفرية وتفظيعاً لجنسها، وذُيلت الآية الثانية بقوله ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ تنبيهاً على استجابتهم لدعوة الشيطان الذي أضلهم. وبين الآيتين تحريض على قتالهم واستنكار لانقسام المؤمنين في أمرهم إلى فئتين: فئة تقول نقاتلهم وفئة تقول لا نقاتلهم مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جلية، فالنص يعطينا شدة وحسماً في التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته في قتالهم ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ ورؤية الموقف من خلال الآيات لا يدع مجالاً للدفاع عن المستهزئين بدين الله، وأمة الإسلام ليست في حاجة إلى مبررات أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ قال الزجاج: تأويل أركسهم: نكّسهم وردّهم إلى حكم الكفار من الذل والصغار والسبي والقتل ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ بما أظهروا من الارتداد. وهذه شهادة من الله حاسمة في أمرهم إذ حكم بشركهم وضلالهم وردّهم إلى أحكام الكفر الأصلية بما كان في قلوبهم من الشك والنفاق والشحناء، وكشفَ سبحانه ما تكنه صدورهم من الحقد والحسد والبغضاء فقال ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ

كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ كما قال سبحانه ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾.

وقوله عليه الصلاة والسلام «لا تشرك بالله شيئا» تضمن نفي الإشراك في الحكم والعبادة، وقد ربطت سورة الكهف شرك الحكم بشرك العبادة، وتسميتها بسورة الكهف يدل على أهمية قصة أصحاب الكهف الذين واجهوا شرك العبادة والحكم ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ والسورة استُهلَّت بإنذار الذين أشركوا بالعبادة ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ثم ذُيّلت بذات الإيقاع ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ إشارة إلى الدجاجلة الذين أشركوا الملائكة والنبيين بالعبادة ثم تظاهروا بتوحيد العبادة وزعموا أنهم أهل الحسنى والزيادة! فجاء النظم بطريقة بديعة في نفي التشريك في الحكم والعبادة، وإفادةِ انحصار وصفه تعالى بالوحدانية المطلقة. وشرك العبادة هو الأساس الذي قام عليه الشرك في الحكم، وبنو إسرائيل أشركوا بالعبادة – بعد النجاة من فرعون – باتخاذهم العجل الذي صنعه لهم السامري الذي كان يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وأشركوا في الحكم بتوليهم الجبارين فثبطوا قومهم عن دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وقالوا لنبيهم ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

وقوله عز وجل ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ يتضمن نفي الإشراك في الحكم والعبادة، كما أشارت كلمات يوسف ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إلى قوله ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لقد جاء الأمر الإلهي لأبي الأنبياء مرشداً إلى أصل الإسلام وأساس التوحيد ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد تضمنت

هذه الآية جماع معاني التوحيد...إن إبراهيم يَذكُر الله بصفة الربوبية...قضية السلطة العليا والطاعة المطلقة، وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة البشرية! وهي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك، فإما أن يدين الناس لرب واحد وإما أن يدينوا لأرباب متفرقة! ولذلك قال إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وجاء التعبير بهذه الصيغة دون قوله: أسلمت لك ليأتي بالإسلام وبدليله، والمعنى استسلمتُ للملك الحق الذي تحقّ له الربوبية والملك والسيادة والسياسة، والإسلام إنما سُمّي إسلاماً لهذا المعنى، وهذه هي ملة إبراهيم، وهذا هو التوحيد بشموله، وهذا هو الإسلام الخالص الصريح...لا يرغب عنه إلا ظالم لنفسه سفيه عليها ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ والاستفهام للإنكار والاستبعاد، وموقع الآية من سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل، فإنه لّما بيَّن فضائل إبراهيم علم أن صاحب هاته الفضائل لا يعدل عن دينه والاقتداء به إلا سفيهٌ طيَّاش وأحمق فحَّاش! والآية تواجه الذين نازعوا الأمة المسلمة الإمامة ونازعوا الرسول ﷺ النبوة والرسالة وأعرضوا عن متابعة القرآن وجادلوا في حقيقة التوحيد والإسلام! وقد حكى تعالى عن إبراهيم أنه بالغ في وصية بنيه وذَكرَ عَقِيبه أن يعقوب وصّى بنيه بمثل ذلك تأكيداً للحجة على اليهود والنصارى ومبالغة في البيان ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ والمقصود بعثهم على الإسلام والدوام عليه وذلك أن المرء يخشى أن تعاجله المنية فيفوته الظفر بالنجاة، والوصية دالة على أن شفقة الأنبياء على أبنائهم كانت في باب الإسلام وهمتهم مصروفة إليه دون غيره. قال الراغب الأصفهاني في تفسيره: وقوله ﴿بِهَآ﴾ أي بالملة وقيل بالكلمة التي دل عليها قوله ﴿أَسْلَمْتُ﴾ وكلاهما غير منفك من الآخر إذ كانت هذه الكلمة من جملة الملة، والملة مقتضية لهذه

الكلمة فبين تعالى أن إبراهيم وصى بنيه ووصى يعقوب بنيه أيضاً بها كما أوصى إبراهيم وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي دين إبراهيم فحذف القول لتضمن الوصية لذلك. اهـــ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وردت الآية في موضعين من سورة القصص، والقول في التفرقة بين الآيتين أن الأولى تشير إلى إشراكهم آلهة من الجن، والثانية تشير إلى إشراكهم آلهة من الإنس، وبذلك يظهر الفرق بين الآيتين ولا يلزم التكرار. وقد ذُيّل سياق الآية الأولى بقوله ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كما ذُيّل سياق الآية الثانية بقوله ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وبين الآيتين استطراد بالاستدلال على الملك العليم والصانع الحكيم إذ أقام دليلاً دالاً على قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر وعجزِ شركائهم على مثل ذلك، فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عمّ وجوده ولا ضد له عسر إدراكه فلو كان الضياء سرمداً لكنا نظن أنه لا هيئة لليل ولكن لما غاب النهار وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين وكذلك لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية! ولما كان شركاء بني إسرائيل من الجن هم الذين حملوهم على الشرك قدّمَ الكلام عليهم، ثم قدّم إجابتهم لسؤاله ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إلى بني إسرائيل مواجهة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ – يعني شياطين الجن – رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ – يعني يقال لمشركي بني إسرائيل ادعوا شركاءكم لينصروكم وينقذوكم من العذاب – فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ ونظير هذا في سورة الصافات ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن

دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ومعنى قولهم لشركائهم الجن ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي تأتوننا عن الناحية التي كان منها الحق فتصرفوننا عنها وتخدعوننا بأقوى الوجوه والأسباب وتزينون لنا ضلالتنا. وقد ابتُدئت الجملة ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ بضمير الغائب ليعود إلى المتحدث عنه بما تقدم من قوله ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات العظيمة والفاعل لتلك الأفعال الجليلة والمذكور بالربوبية هو المسمى الله، وقوله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ زيادة تقرير لمدلول الخبر الأول فإن اسم الجلالة اختص بالدلالة على الإله الحق إلا أن المشركين حرفوا الإلهية فكان هذا إبطالاً للشرك الذي قرروه في ميثاقهم الأممي، وقد ورد في سياق إبطاله بحكاية تلاشيه يوم القيامة بقوله ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ وجملة ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ بيان لجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وأدمج بينهما استحقاقه للحمد والثناء على وجه الإجمال ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ كما أدمج في الآية الأخيرة ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ قال الإمام البخاري في صحيحه: إلا مُلكه، ويقال: إلا ما أريد به وجه الله. ومذهبنا إثبات صفة الوجه لله تعالى وعدم الاشتغال بكيفيتها وتفويض تأويلها إلى الله تعالى بعد تنزيهه عز وجل عن الجارحة. وفي قوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إبطال لإنكارهم البعث. وبين قوله ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وقوله ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ آية مُعلِمة بغيب قد ظهر للأمة ومؤنسة بفتح عظيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ

عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يعني إلى مكة ظافراً ظاهراً على المشركين وهذا أقرب لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود وذلك لا يليق إلا بمكة وهذا الخبر يدل على نبوته لأنه أخبر عن أمور غيبية، ووجه ارتباط الآية بما تقدمها أنه تعالى لما ذكر من قصة موسى وفرعون واستطالته عليه وهلاكه ونصرة أهل الحق عليه ذَكرَ جل شأنه هنا ما يتضمن قصة سيدنا صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأمته مع بني إسرائيل واستطالتهم عليها وإخراجهم إياها ثم إعزازها بالإعادة إلى مكة وفتحها إياها منصورة مكرمة، ولمّا وعد تعالى رسوله الردّ إلى معاد حَسُنَ الاتصال بقوله تعالى ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيكون علم الله بالمهتدي والضال مكنى به عن اتضاح الأمر بلا ريب، لظهور أن المبلِّغ لهذا الكلام لا يفرض في حقه أن يكون هو الشق الضال فيتعيّن أن الضال من خالفه. وفي ثنايا البشارة أمْرٌ للمسلم بمتاركة المشركين في شرعتهم ومنهاجهم متاركة المستيقن من ضلالهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ كما حكى تعالى عن موسى ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني لا أكون معهم ولا أنتظم في نظامهم ولا أُكثّر سوادهم.

قوله: «وأن محمدا رسول الله»

أي أن الله تعالى بعثه بهذه الرسالة وهو عليه الصلاة والسلام الواسطة بيننا وبين الله وهو الحاكم بأمر الله تعالى كما قال عز وجل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني حاكما، وفي الحديث: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء» أي تحكمهم فكان كل نبي من أنبياء بني إسرائيل حاكماً، والوظيفة الأساسية للرسل والأنبياء هي تقرير حكم الله في الأرض كما حكى تعالى عن

لوط عليه السلام ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وموسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهذا يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وكذلك داود وسليمان عليهما السلام ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فالرسل يبعثون بكتاب يدعو وسيف يدفع لتقرير حكم الله في الأرض، ولا تنحصر مهمتهم في الدعوة على المنابر وإنما يبعثون بسيف وكتاب. ولو أن أهل الكتاب آمنوا برسول الله لزمهم أن يكونوا تحت أمره ونهيه لأن النبوة تحتها كل مُلك ورئاسة، وقد أشار ﷺ إلى نفاقهم في رسالته المضمر في قلوبهم كما جاء في الصحيحين: «وأوحي إليَّ أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقال له: نم صالحاً فقد علمنا إن كنت لموقناً، **وأما المنافق** أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته» والشهادة بأن محمداً رسول الله تتطلب الاعتقاد الجازم بأن الله أرسله بتوحيد الألوهية والربوبية كما قال عز وجل ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والخطاب هنا للمنافقين كما دلّ السياق، وقد سد سبحانه الطريق إلى نفسه على الكافة إلا بعد الانقياد لحبيبه ﷺ فمن لم يمش تحت قبابه فليس من الله في شيء، ولو أن الحفاة العراة آمنوا لزمهم أن يكونوا تحت أمر الرسول ﷺ ونهيه ولكنهم كفروا، وقد أشار إلى ذلك المعنى حديث ابن عباس عند البيهقي: «وأما الكافر فتنزل الملائكة فيبسطون أيديهم والبسط هو الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت، فإذا دخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل له: من رسولك الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً، يقول الله: كذلك

يضل الله الكافرين» والسبب الذي يحمل الحفاة العراة على عدم الإيمان بالسيد الأعظم محمد ﷺ عدة أشياء: أولها: بغضهم وعداوتهم لسيدنا وسيد الكائنات عليه أكمل الصلوات وأتم التسليمات، وأمارات العداوة ظاهرة في فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم وسقطات أفعالهم وفحوى رسائلهم وتقلبات أحوالهم. وثانيها: أنه ﷺ يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من شرائعهم الباطلة ومناهجهم الزائغة وذلك شاق شديد على طباعهم المتمردة. وثالثها: أنه ﷺ متبوع مخدوم والأقوام يجب عليهم المشي تحت قبابه والانقياد له لأن النبوة تحتها كل مُلك ورئاسة وذلك يشق على نفوسهم الخبيثة. ورابعها: أنه ﷺ قد لا يكون له أعوان وأنصار ولا مال ولا جاه فيما يظهر فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم اتِّباع من يكون بهذه الصفة. وخامسها: خذلان الله لهم وإلقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم، نعوذ بالله من الحرمان ونسأله حبه وحب سيدنا سيد ولد عدنان. والشهادة بأن محمداً رسول الله تتطلب الاعتقاد الجازم بأن الله أرسله بتوحيد الألوهية والربوبية كما قال عز وجل ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والخطاب هنا للمنافقين كما دلّ السياق، ولو أنهم آمنوا لزمهم أن يكونوا تحت أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونهيه ولكنهم كفروا، وقد أشار إلى ذلك المعنى حديث ابن عباس عند البيهقي: «وأما الكافر فتنزل الملائكة فيبسطون أيديهم والبسط هو الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت، فإذا دخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل له: من رسولك الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً، يقول الله: كذلك يضل الله الكافرين» وهذه هي فتنة الممات أعاذنا الله منها بمنّه وكرمه، وأما فتنة المحيا فهي فتنة الحفاة العراة وإليها الإشارة

بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» وأهل الكتاب لم يروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً إنما رأوه بشراً ولسان حالهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببشريته مع الناس يؤدي رسالة السماء كاملة غير منقوصة وهو بسره مع الله متصل بالله دائماً فهو صلوات الله وسلامه عليه يبيت عند ربه كما جاء في مسند البزار: «إني لست مثلكم إني أبيت عند ربي» وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقين» وقد نبه تعالى على أن الناس متساوون في البشرية غير متفاضلين في الإنسانية وإنما يتفاضلون بما يتخصصون به من المعارف الجليلة فقال ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ تنبيهاً على الجهة التي حصل بها الفضل عليهم أي تميزت عليكم وخصصت من بينكم بالوحي والرسالة. ولله در الأبوصيري حيث قال:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهمِ

فهذه البشرية في إطار ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ وفي إطار: «تنام عيني ولا ينام قلبي» وبهذا ظهر أن وصفه صلى الله عليه وآله وسلم بالبشرية يجب أن يقترن بما يميزه عن عامة البشر من ذكر خصائصه الفريدة ومناقبه الحميدة وهذا عام في حق جميع رسل الله تعالى لتكون نظرتنا إليهم لائقة بمقامهم إذ أن ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هي نظرة جاهلية شركية وفي القرآن شواهد كثيرة على ذلك ومنها: قول قوم نوح في حقه فيما حكاه الله عنهم ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وقول ثمود لنبيهم صالح فيما حكاه الله عنهم ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ونحوه قول أصحاب الأيكة لنبيهم

شعيب فيما حكاه الله عنهم ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقول فرعون وملئه لموسى وهارون في حقهما فيما حكاه الله عنهم ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ وحيي بن أخطب وأضرابه لم يروا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنما رأوا محمداً ولو رأوه صلى الله عليه وآله وسلم بالتعظيم والإكرام والأسوة واعتقدوا أنه رسول الله لم تحرقهم النار، ألا تراه يقول: «طوبى لمن رآني وآمن بي» وإنما يتسلل الإثم إلى بعض الجهلة في صورة لا شعورية، فيتحدثون عن البشرية، ويعتبرون أنفسهم على التوحيد والحنيفية، وفاتهم أن هذه النظرة إنما هي النظرة التي يتبناها أهل الكتاب ليقللوا من شأن الرسول الجليل الأعظم والبحر الخضم المطلسم صلى الله عليه وآله وسلم وكل من يركز على بشرية الرسول من الدعاة المسلمين إنما هو بذلك يتابع أهل الكتاب في هذه النزعة، فهناك طرفان يمثلان فريقين من الناس: الأول ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ والآخر ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين انخفاضاً وسموّاً، والسبب الذي يحمل الحفاة العراة على عدم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدة أشياء: أولها: بغضهم وعداوتهم لسيدنا وسيد الكائنات عليه أكمل الصلوات وأتم التسليمات، وأمارات العداوة ظاهرة في فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم وسقطات أفعالهم وفحوى رسائلهم وتقلبات أحوالهم. وثانيها: أنه صلى الله عليه وآله وسلم يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من شرائعهم الباطلة ومناهجهم الزائغة وذلك شاق شديد على طباعهم المتمردة. وثالثها: أنه صلى الله عليه وآله وسلم متبوع مخدوم والأقوام يجب عليهم المشي تحت قبابه والانقياد له لأن النبوة تحتها كل مُلك ورئاسة وذلك يشق على نفوسهم الخبيثة. ورابعها: أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد لا يكون له أعوان وأنصار ولا مال ولا جاه فيما يظهر فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم اتّباع من يكون

بهذه الصفة. وخامسها: خذلان الله لهم وإلقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم، نعوذ بالله من الحرمان ونسأله حبه وحب روح الأعيان وكنز النجاح والأمان سيدنا سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله: «وتقيم الصلاة»

وإنما نبّه على إقام الصلاة دون قوله "وتصلي" تأسياً بالقرآن الكريم ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولأن في لفظ "تقيم" فوائد جميلة ومعاني جزيلة فإن معنى إقام الصلاة: تقويمها أي تعديلها مأخوذ من أقام العود إذا قوّمه، ويحتمل أن إقام الصلاة عبارة عن المداومة عليها كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ ويحتمل أن ذلك عبارة عن التجرد لأدائها وأن لا يكون فيمن أداها مراءاة ولا فتور ولا تهاون ولا قصور لأن الله تعالى توعد المرائين الساهين عن صلاتهم فقال ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾ ثم إن في إقام الصلاة من سر العبودية الموجبة لحفظ شرف الفرقة الآدمية ورعاية حقوقهم ما لا يخفى. وسميت الصلاة صلاة لأن المصلي يسعى في تعديل باطنه وظاهره، وإقام الصلاة يعني إقامة أصل الدين وقاعدته، وخلع الشرك الذي يحبط العمل كما قال تعالى ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ وقال سبحانه ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي وحّد الله في ربوبيته وسلطانه فاستقامت صلاته وأوتيتْ زكاته، وروى البيهقي في شعب الإيمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سلوني عما شئتم» فنادى رجل يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «إقام الصلاة وإيتاء الزكاة» قال: فما الإيمان؟ قال: «الإخلاص» وجماع القول في آية البينة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: وما أُمِر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل والقرآن إلا ليفردوا

الله بالعبادة جاعلين الحكم خالصاً له تعالى، مائلين عن الأديان الزائغة التي أقاموها إلى دين الإسلام، كما أخبر تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ ونظير هذا قوله تعالى ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ وتخصيص ذكر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة للتنبيه على أن أحبارهم ورهبانهم أطنبوا فيها من غير إحكام الأصول فأتعبوا أنفسهم في الطاعات، وما حصّلوا الدين الحق وأضاعوا الملة القيمة، وقوله ﴿حُنَفَآءَ﴾ إشارة إلى أصل الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام كما حكى تعالى ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وقال سبحانه ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٠ ۞مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ والمقصود إقامة الحجة على أهل الكتاب بأنهم أعرضوا عما هم يتطلبونه فإنهم مقرّون بأن الحنيفية هي الحق الذي أقيمت عليه الموسوية والعيسوية والمحمدية! وفي الآية إلزام لهم بأحقية الإسلام، والمسلم يقول في تشهده: التحيات لله، وهذا هو التوحيد بشموله، والصلوات: إقامة الصلاة، والطيبات: الزكوات وما ينفَق في سبيل الله، وحتى لا تكون الصلاة مجرد حركات تعبدية فإن القرآن يؤكد آثارها السلوكية ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ والمنكر هو الشرك...وقد أخبرنا المولى سبحانه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ أن هؤلاء المنافقين سيدعون في موقف القيامة إلى السجود فلا يستطيعون! أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن

ومؤمنة ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً». والجزاء من جنس العمل وهو الجزاء العادل للمستهزئين الذين نقضوا الميثاق...وميثاق الله مع بني إسرائيل ميثاق بين طرفين تضمن شرطاً وجزاء، والنص القرآني يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده، لقد كان عقداً مع نقباء بني إسرائيل الاثني عشر، الذين يمثلون فروع بيت إسرائيل وهم الأسباط أحفاد يعقوب وعددهم اثنا عشر سبطاً، وهذا نصه ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهي معية عظيمة مرتبطة بأسبابها وشروطها...وفي تخصيص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر دليل على شرفهما، والأولى أصل التعظيم لأمر الله، والثانية أصل الشفقة على خلق الله، وبهاتين الشعيرتين قوام السعادة والأمن للمجتمع، ثم خص القرض تنبيهاً على شرفه. وقد سوّل الشيطان لبني إسرائيل الجمع بين الشرك والصلاة تمويها على أهل الإسلام وسعياً بالتحريش بينهم كما روى الإمام مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم» والمصلون هم المؤمنون وسموا بذلك لأن الصلاة أشرف الأعمال وأظهر الأفعال الدالة على الإيمان، والمراد أنهم لا يجمعون بين الصلاة وعبادة الشيطان كما فعلته يهود ونصارى بني إسرائيل، وعبادتهم الشيطان باعتبار اتخاذه وليّاً وشريكاً في الحكم، ويرشد إلى هذا ما ورد في الصحيحين: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان» فلا

يجمع بين الصلاة والإشراك إلا أولياء الشيطان في جزيرة العرب. قال الكلبي في قوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هم أهل الكتاب.

أول صلاة ظهرت في الإسلام

أول صلاة ظهرت في الإسلام: صلاة الظهر وفي ذلك إشارة إلى أن دينه صلى الله عليه وآله وسلم سيظهر على سائر الأديان كظهور هذه الصلاة على سائر الصلوات ولا شك أن هذه الصلوات الخمس ثوابها بخمسين صلاة كما يشهد له قوله تعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم حكاية عن ربه عز وجل: «هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي» قال بعض شراح هذا الحديث: هي خمس بحسب الفعل وخمسون بحسب الثواب. قلت: وفي ذلك إغاظة لأهل الكتاب وكمد لمقاصدهم وحسرة وحزازة في نفوسهم وغيظ في قلوبهم بأن هذا التخفيف جاء من طريق رسولهم موسى عليه السلام. وأفضل الصلوات صلاة الجمعة ثم عصرها ثم عصر غيرها ثم صبحها ثم صبح غيرها ثم العشاء ثم الظهر ثم المغرب وأفضل الجماعات جماعة الجمعة ثم جماعة صبحها ثم جماعة صبح غيرها ثم جماعة العشاء ثم جماعة العصر ثم جماعة الظهر ثم جماعة المغرب، وروى الطبراني عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه آله وسلم قال: «الصلاة في المسجد الجامع تعدل الفريضة حجة مبرورة، والنافلة كحجة متقبلة، وفضلت الصلاة في المسجد الجامع على ما سواه من المساجد بخمسمائة صلاة» وروى الديلمي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصلاة تسود وجه الشيطان والصدقة تكسر ظهره والتحاب في الله والتودد في العمل يقطع دابره فإذا فعلتم ذلك تباعد منكم كمطلع الشمس من مغربها» وينبغي

للمصلي أن يكون خاشعاً خاضعاً حاضراً بقلبه ولبه مع ربه ليبلغ مقام الإحسان، روى ابن النجار عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده قال: «ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم» وقد عدَّ العلامة الغزالي من شروط الصلاة الخشوع وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه ولا يتمايل كما تتمايل اليهود فإن تسكين الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة».

قوله: «وتؤتي الزكاة» الزكاة تأتي في اللغة لمعان متعددة فمنها: النماء، ومنها: البركة، ومنها: كثرة الخير، ومنها: المدح، ومنها: التطهير، وفي الشرع: تمليك جزء من المال معين شرعاً من مستحق غير هاشمي ولا مولاه مع قطع المنفعة عن المملك من كل وجه لله تعالى. وإنما ذكر إيتاء الزكاة دون قوله "وتزكي" تأسياً بالقرآن الكريم ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولمناسبة ما قبله وهو إقام الصلاة وقد ورد في حق المانعين قوله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ وقد منع الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من أخذ زكاة المنافقين لأنهم ما أتوا بها خالصة لوجه الله تعالى بل أتوا بها على وجه الرياء والسمعة، والصدقة إذا لم تكن خالصة لله عارية عن شوائب الرياء فشأنها أن لا تقبل لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال الصالحة إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ وقد نزل في حقهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ نعوذ بالله من جملة المنافقين الذين ذمهم الله في جملة آيات قرآنية وبينات فرقانية ولعنهم على لسان

سيد البشر والشفيع يوم المحشر وقال في حقهم ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ وليتدبر ما في هذه الآية من التخويف والتهديد، والوعيد الشديد، وما تضمنته من الأهوال، التي تذهل الألباب وتدك الجبال، ولما كانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أوضحت لهم ما هو كائن لا محالة في عقباهم فآثروا أنفسهم وهواهم وقدموا رضاهم على رضا مولاهم لا جرم استحقوا التهكم وذلك قوله تعالى بصيغة التهكم ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولما نزلت هذه الآية كبُر ذلك على المسلمين فقالوا: ما يستطيع أحدنا يدع لولده مالاً يبقى بعده فقال عمر رضي الله عنه: أنا أفرج عنكم فانطلقوا وانطلق عمر رضي الله عنه واتبعه ثوبان حتى أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال عمر: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى لم يفرض عليكم الزكاة إلا ليطيّب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث في أموال تبقى بعدكم» قال: فكبَّر عمر رضي الله عنه. وقال تعالى في حق المنافقين من أهل الكتاب ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إلى آخر الآية»

وروى الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ظهرت لهم الصلاة فصلوها وخفيت لهم الزكاة فأكلوها أولئك هم المنافقون».

قوله: «وتصوم رمضان»

والصوم من شرائع أهل الكتاب وأما بهذه الكيفية فمن خصوصيات الأمة المحمدية، والتشبيه في الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ عائد إلى أصل إيجاب الصوم يعني أن هذه العبادة كانت مكتوبة ومفروضة على أهل الكتاب وقد أورد الإمام الطبري في الآية بعض الأقوال ثم قال: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معنى الآية "يا أيها الذين آمنوا فرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم" من أهل الكتاب. اهـــ. وكانوا ينسؤون الصيام من فصل إلى آخر ثم يزيدون عشرين يوماً يُكَفرون بها ما صنعوا...ولما كان لهذه الأمة تميزٌ عن غيرها إذ هي متعبدة بمخالفة أهل الكتاب كما حصل في تحويل القبلة، جاء التوجيه هنا في الصيام فقال ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ وسماه الفرقان بما فيه من التفرقة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وبما فيه من الفصل بين المحقين والمبطلين، وبما فيه من التفرقة بين منهاج أهل الإسلام ومنهاج أهل الكتاب، وبما فيه من التمايز بين معسكر أهل الإيمان ومعسكر أهل الإشراك، فالقرآن يضع منهاجاً واضحاً للأمة المسلمة في صيامها، منهاجاً لا يختلط بمنهاج أهل الكتاب، منهاجاً في حياة الأمة المحمدية لا يختلط بكل ما كان قبله، فهو فرقان بهذا المعنى

الواسع الكبير، فلا يكون هناك اجتماع أو انتظام في نظام واحد، والتشبيه في قوله ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إنما هو في حصول أصل الصيام لا في كيفيته وفضيلته فإن مما لا شك فيه أن صيام الأمة المحمدية أفضل من صيام الأمة الإسرائيلية والأمم المتقدمين فقد روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب أكرمتني بالتكليم فهل أعطيت أحداً مثل ذلك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن لي عباداً أُخرجهم في آخر الزمان وأُكرمهم بشهر رمضان فأكون أقرب لأحدهم منك لأنك كلمتني وبيني وبينك سبعون ألف حجاب فإذا صامت أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى ابيضت شفاههم واصفرت ألوانهم أرفع الحجب بيني وبينهم وقت إفطارهم، يا موسى طوبى لمن عطش كبده وأجاع بطنه في رمضان. اهـــ. وفي الحديث: «إذا استيقظ المؤمن في شهر رمضان وتقلب من جنب إلى جنب وذكر الله تعالى يقول له الملك: قم يرحمك الله، فإذا قام يدعو له الفراش: اللهم أعطه الفرش المرفوعة في الجنة، وإذا لبس ثوبه يدعو له: اللهم أعطه حلل الجنة، وإذا لبس نعله يدعو له: اللهم ثبت قدمه على الصراط، وإذا تناول الإناء يدعو له: اللهم أعطه أكواب الجنة، وإذا توضأ يدعو له الماء: اللهم طهره من الذنوب والخطايا، وإن قام بين يدي الله تعالى يدعو له البيت: اللهم نور لحده ووسع عليه قبره، وينظر الله إليه ويقول: عبدي منك الدعاء ومنا الإجابة» ورُوي عن ابن عباس أن يهودياً سأل: لم سمي رمضان؟ فقال: لأن الذنوب ترمض فيه إرماضاً. وفي رمضان ليلة شرفها الله وكرمها وأعلى منارها بإنزال القرآن فيها حيث قال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي أنزله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في الليلة المذكورة ثم أنزله إلى الأرض نجوماً، قال مجاهد: ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ في ليلة الحكم. وبعد أن بين تعالى عظيم قدرها بكونه اختارها من بين سائر الليالي لنزول

القرآن نوه بشرفها فقال ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ والاستفهام على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة والتشويق إلى خيرها وتنويهٌ بطريق الإبهام المراد به أن إدراك كنهها ليس بالسهل لما ينطوي عليه من الفضائل الجمة ثم بيَّن فضلها من وجوه ثلاثة: الأول: قوله ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ قال مجاهد: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسي فعل ذلك ألف شهر، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون من ذلك فأنزل الله هذه الآية أي ليلة القدر لأمتك خير من ألف شهر لذلك الإسرائيلي الذي حمل السلاح ألف شهر. وقال مالك بن أنس: أري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمار الناس فاستقصر أعمار أمته وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغه سائر الأمم فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من ألف شهر لسائر الأمم. ولا يخفى أن ألف شهر تبلغ بحساب السنين نيفاً وثمانين سنة فمن أحيا هذه الليلة فكأنما عبد الله تعالى نيفاً وثمانين سنة ومن أحيا الشهر لينالها بيقين فكأنما أحيا ثلاثين قدراً. ويُروى أنه يجاء يوم القيامة بالإسرائيلي الذي عبد الله أربعمائة سنة ويجاء برجل من هذه الأمة وقد عبد الله أربعين سنة فيكون ثوابه أكثر، فيقول الإسرائيلي: أنت العدل وأرى ثوابه أكثر، فيقول: لأنكم كنتم تخافون العقوبة المعجلة فتعبدون، وأمة محمد كانوا آمنين لقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ ثم إنهم كانوا يعبدون فلهذا السبب كانت عبادتهم أكثر ثواباً. الوجه الثاني: من فضائل هذه الليلة قوله تعالى ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ والروح هو جبريل عليه السلام وخصه بالذكر لمزيد شرفه وعلو قدره فكأنه تعالى جعل الملائكة كلهم في كفة وجبريل عليه السلام في كفة، وقوله ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ يفيد تشوقهم إلينا ورغبتهم لزيارتنا وحبهم للقائنا فيستأذنون ربهم

لأجل ذلك فيأذن لهم. الوجه الثالث: قوله تعالى ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي هي ليلة سلام تسلم الملائكة فيها على المؤمنين أو أنها سلامة من الشرور والآفات فإن الملائكة تنزل فيها بأجزل الخيرات وأعظم السعادات ولا ينزلون فيها بشيء من المضرات. ومن بدائع القرآن الكريم في قضية الصيام أن الله عز وجل ذكر ما كتب على المسلمين من الصيام الذي كُتب على الذين من قبلهم من أهل الكتاب ثم قال ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ فنوَّه بهذا الشهر الذين أنزل فيه القرآن، ثم بيَّن أنه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان أي فيه هدى للناس إلى مقام الإسلام، وبينات أي حججاً واضحة تهدي إلى تحقق الإيمان، وإلى تحقق الفرق بين الحق والباطل وهو ما سوى الله فيتحقق مقام الإحسان، ولما أتم ما في ذكر الشهر من الترغيب إثر التعيين ذكر ما فيه من عزيمة ورخصة فقال ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي على هذه الطريق القويمة المستقيمة الواضحة التي تعني أولاً مجانبة أهل الكتاب ومتاركتهم ومفارقتهم فإنهم يريدون بالمؤمنين العسر! والله سبحانه يريد بهم اليسر وبذلك بُعث صاحب الرسالة وإمام أهل الدلالة صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في المعجم الكبير للطبراني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة» ولّما أثبت الحق سبحانه كتاب الصيام لعباده ورَفَعهم إلى خبء جزائه وأنهاهم إلى التكبير على عظيم ما هداهم إليه من توحيده واستخلفهم في شكر نعمته بما خولهم من عظيم فضله؛ تهيؤوا إلى رتبة الإحسان فبشرهم بمطالعة قربه فقال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ونحوه قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ

ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ وهذا الربط يساعدنا على فهم أبعاد الإيحاء الذي تعطيه دلالة الآيات، فالإسلام رسالة سماوية تقف وراءه قوة تقرر ربوبية الله المطلقة في الأرض وتدمر السلطات التي تقاوم المنهج الرباني وتحطم ربوبية العبيد! وورود ذكر ربوبية الله في الآية يدل على أنه من أعظم ما يُطلب به إجابة الدعاء كما روى البزار من حديث عائشة مرفوعاً: «إذا قال العبد: يا رب أربعاً، قال الله تبارك وتعالى: لبيك عبدي سل تعطه» والدعاء مخ العبادة وذلك باعتبار أن الداعي يدعو الله تعالى عند انقطاع أمله عما سواه وفي ذلك حقيقة التوحيد والإخلاص كما أن في الدعاء إظهار الافتقار لسلطان العزيز الجبار وفيه التبرؤ من الحول والقوة وهو سمة العبودية واستشعار التذلل لعزة الربوبية. واعلم أيها العبد أن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا وخير الآخرة، وقد يمنعك لطفاً بك لكون ذلك المطلب لا يليق بك، وقد يكون أجابك وعيَّنَ لذلك وقتاً هو أصلح لك وأنفع فيعطيك ذلك في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد، وقد يؤخر لك ذلك لدار الكرامة وهو خير لك وأبقى، فلا تيأس من نوال الله ورفده فإنه تعالى كريم على الدوام ونعمه سحاء على مرّ الليالي والأيام، واسمه سبحانه الكريم وهو الذي لا تتخطاه الآمال ويحب أن يُسأل فيجيب السؤال وإذا سئل أعطى ولا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، فهذا من كمال كرمه وتمام إحسانه وإنعامه، فإذا أنزل الله بك حاجة فأنزلها بالله، واجعلها تحت مشيئة الله، وغب عنها في ذكر الله، ولا تلتفت إلى ما سواه. قال بعض العارفين: قيل لي في النوم: إنما ابتليتُك بالفاقة لتفرغ منها إليّ، وتتضرع بها لديّ، وتتوكل فيها عليّ، وسَمْتُك بالفاقة وحكمتُ لنفسي بالغنى، فإن

وصلتَها بي وصلتُك بالغنى وإن وصلتَها بغيري قطعتُ عنك معونتي، وحسمتُ أسبابك من أسبابي، طرداً لك عن بابي.

قوله: «وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»

الحج بفتح الحاء وكسرها بمعنى واحد، والفتح لغة الحجاز، والكسر لغة نجد، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وقد حجه آدم ثم الأنبياء، ما من نبي إلا حجه، والحج تعتريه الأحكام الخمس فيكون: فرضاً وواجباً وحراماً ومكروهاً وسنة. وهو الركن الخامس من أركان الإسلام وقد ورد ذكره في بعض الروايات، قال تعالى ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ والآية نزلت في السنة السادسة للهجرة وقت أن كان المسجد الحرام تحت حكم المشركين، والحج لم يكن قد وجب يومئذ، إذ كان الحج بيد المشركين ففي ذكره بشارة بأنه يوشك أن يصير في قبضة المسلمين، ومِثل هذا الأمر المتعلق بوصف فعل يقع في كلام العرب على وجهين: الأول: أن يجيء الأمر بوصف الفعل مراداً به تحصيل الفعل من أول وهلة على تلك الصفة نظير قوله تعالى ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي أعطيها وافرة من أول الأمر لا إتمامها بعد أن كانت ناقصة وهذا ضرب من ضروب التعبير ليس بكناية ولا مجاز، والإتمام عند السادة الشافعية مراد منه إيجاب الشروع إذ لا يصح أن يؤمروا بإتمام الحج ولم يدخلوا فيه فعلم أنه أراد إنشاءه وابتداءه، والثاني: إكمال الشيء، ويكون معنى إكمال الحج والعمرة ألا يكون حجاً وعمرة مشوبين بشرك وفتنة وهذا أنسب بالآيات التي قبلها والتي تُلوّح إلى جوب إزالة الشرك، ومن طرق إزالته القتال المشار إليه بالآيات السابقة فكان التهييج والتحريض من الله عز وجل لتحرير هذا البيت وتطهيره من أهل الكتاب وهذا من معجزات القرآن،

ومعلوم أن الدولة الوهابية الأولى والثانية حاولت السيطرة على المشاعر المقدسة عبر السطو الوحشي على الحجاج إلا أنه لم تقم للحفاة العراة دولة في الحرمين حتى أذن الله بقيام دولتهم الثالثة! وحديث جبريل عليه السلام بمثابة تجديد للدين في مرحلة استخلاف بني إسرائيل في الأرض وهو على وجازته اشتمل على فوائد كثيرة وعوائد وفيرة حتى اعتبر أصلاً لعلوم الشريعة، ونحوه ما رواه الشيخان عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: «لا، إلا أن تطوع وصيام شهر رمضان» فقال: هل عليَّ غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع» وذكر له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الزكاة، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع» قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفلح إن صدق» ومثله حديث وفد عبد القيس الذي ذكر فيه: «وأن تعطوا الخمس من المغنم» وقال في آخر الحديث: «احفظوهن وأخبروا بهن مَن وراءكم» وقوله "وراءكم" يشمل هذه المرحلة باعتبار الزمان تحريضاً على قتال الحفاة العراة ولذلك خص ذكر الخمس من المغنم. فهذه الروايات التي لم يرد فيها ذكر الحج تشير إلى الفترة التي سقطت فيها قبلة المسلمين تحت حكم المشركين – والله ورسوله أعلم – وعليه فإن المسلم الذي لا يملك القدرة على متاركة المشركين في مناسك الحج يمتنع وجوب الحج عليه.

وقد استهلت سورة الحج بذكر أولياء الشيطان ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ ثم انتقل إلى الكلام عن جدالهم بغير دليل عقلي

فاض عليهم يمكن التوصل به إلى إثبات ادعائهم بطريق النظر والاستدلال ولا هُدى وكشف صريح لدني قد نبع من قلوبهم بلا افتقار إلى مقدمات الوسائل العادية التي يستنتج منها المطالب ولا كتاب منير ودليل نقلي ينور خلده لفيضان المعارف والحقائق من المبدأ الفياض بل إنه ما نشأ عموم ما نشأ منهم من المجادلات إلا من محض التقليد الحاصل من متابعة القوى الوهمية والخيالية الغالبة. ثم انتقلت الآيات إلى كشف هؤلاء المنافقين النفعيين الذين يعبدون الله على حرف! فهم متأرجحون قابلون للانقلاب في أي لحظة! يتذبذبون بين معسكر الإسلام ومعسكر الكفر ويتربصون بالمسلمين الدوائر! ثم أردف بلهجة التحدي الساخرة لهم لشكهم بوعد النصر للمسلمين في الوقت الذي يعجّزهم سبحانه عن الوصول إلى السماء لقطع أسباب النصر عن المجاهدين الذين عجزوا عن استئصالهم ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ والضمير المستتر في قوله ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ عائد على المنافق الذي يعبد الله على حرف، والأمر في قوله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ للتعجيز، والآية نُسجت على إيجاز جليل، شُبهت حالة استبطان المنافقين الكفر وإظهارِهم الإسلام على حنَق وحالةُ تردّدهم بين المسلمين وبين الكفار بحالة المغتاظ مما صنع فقيل لهم: عليكم أن تفعلوا ما يفعله أمثالكم ممن ملأهم الغيظ وضاقت عليهم سُبل الانفراج – فموتوا بغيظكم – وذلك تهكم بهم في أنهم لا يجدون غنى في شيء من أفعالهم وإنذار باستمرار فتنتهم في الدنيا مع الخسران في الآخرة...وكذلك أنزل المولى آيات بينات واضحات جليات وهو سبحانه وتعالى يهدي من يريد، ولّما اشتملت الآيات السابقة على بيان جدال المتبوعين في دين الله وصياغة دين لكل أمة كان ذلك مثاراً لأن يتساءل عن الدين الحق لأن كل أمة تدَّعي أنها على الحق ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ فبينت هذه الآية أن الفصل بين الأعيان والأعوان يكون يوم القيامة إذ لم تفدهم الحجج في الدنيا، ثم انتقل الكلام عقب ذلك إلى ذكر صدهم عن الإسلام والمسجد الحرام وتحريض المؤمنين على تطهيره وهو مسبَّب على التأذين بالحج ثم بيَّن تعالى أنه جعل لكل أمة منسكاً فقال مؤكداً أنه هو الذي مكن لهؤلاء المستخلفين كما مكن لأشياعهم بالأمس ونصبَ الشريعة لأجل امتحان العباد وإظهار ما خبأ في جبلة كل منهم من طاعة وعصيان وشكر وكفران ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ والنسك هنا هو موضع القربان المعروف اليوم بالمسلخ الذي تراق فيه الدماء، والتنكير في قوله ﴿مَنسَكٗا﴾ للإفراد أي واحداً لا متعدداً ومحل الفائدة هو إسناد الجعل إلى ضمير الجلالة وقد دل على ذلك قوله ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ وأدل عليه التفريع بقوله ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ﴾ والمراد أن المسلمين لهم منسك واحد وفي هذا ردٌّ على المشركين الذين اتبعوا الشيطان وزعموا أنهم أهل السنة والقرآن! والكلام يفيد اتّباع ملة إبراهيم وهو مرتب على الأمر باجتناب الشرك واجتناب الكذب بقولهم: هذا حلال وهذا حرام وبزعمهم أنهم على جادة التوحيد وهو معنى قول الزور ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ فإن صدق القول في توحيد الله ونفي الشركاء عنه أعظم الحرمات. والمراد من ذكر اسم الله أن يقول: باسم الله والله أكبر، والمعنى أنه تعالى أكبر من كل كبير وأجل وأنزه من كل جليل وأعلى من كل ما يقع في الوهم وأعظم من كل ما يصل إليه الفهم بل هو أكبر من أن يقاس إليه شيء ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال "الله أكبر" أي وصفة بأنه أكبر من كل شيء

فكيف يُشرَك في حُكمه ويبارى في أمره؟! وهذا نظير ما أمر الله به في سورة الأنعام من قوله ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ والكلام مرتب على الإقرار بحكميته عز وجل ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ وإنه من السخرية بمكان أن يتظاهر بذكر اسم الله من ينازعه سبحانه تعالى في حكمه! وفي سورة الحج توجيه للمسلمين بالمباينة بينهم وبين المستهزئين حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان أو مجرد راية وشعار أو مجرد كلمة تقال باللسان، فلكل أمة شرعة ولكل أمة منهاج ولكل أمة قبلة ولكل أمة منسك، وقد تضمن الأمر بمفارقتهم في أماكن إهراق الدماء لأنهم لم يدينوا دين الحق بالاعتراف بحاكمية الله. إن تعظيم حرمات الله وشعائره من تقوى القلوب كما أخبر علام الغيوب ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ والشعائر ما جعل علامة على أداء عمل من أعمال الحج والعمرة وهي المواضع المعظمة مثل المواقيت التي يقع عندها الإحرام، ومنها البلد الحرام والمسجد الحرام والكعبة والمقام والصفا والمروة وعرفة والمشعر الحرام بمزدلفة ومنى والجمار والبُدن وسُميت بذلك لأنهم يجعلون فيها شِعاراً، والشِعار العلامة بأن يطعنوا في جلد جانبها الأيمن طعناً حتى يسيل منه الدم فتكون علامة على أنها نُذرت للهدي، وتعظيم الشعائر إنما يكون بالانقياد لله وتوحيده كما أرشد تعالى إليه بقوله ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ أي إذ كان قد جعل لكل أمة منسكاً فقد نبهكم إلى توحيده ومتاركة أعدائه، وأصل النظم: فلله أسلموا لأن إلهكم إله واحد، ولما أمر بالإسلام وكان الإسلام هو سهولة الانقياد بالظاهر والباطن من غير كبر ولا شماخة وكان منشأ الطمأنينة والتواضع اللذين هما أنسب شيء

لحال الحاج المتجرد من المخيط المكشوف الرأس الطالب لوضع أوزاره وتخفيف آصاره لستر عوراه، أقبل سبحانه على الحائزين على رتب الكمال وخلال الجمال والجلال فقال ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ والمخبت المتواضع الخاشع، وتقديم المجرور في ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ للحصر أي أسلموا له لا لغيره. **ومن أغراض سورة الحج**: الاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية وعن المجادلة في ذلك اتباعاً لوساوس الشيطان، وأن الشيطان لا يغني عنهم شيئاً ولا ينصرهم في الدنيا وفي الآخرة، وتفظيع جدالهم في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم يعرضون عن الحجة ليضلوا الناس، وأنهم لا يؤمنون بالبعث واليوم الآخر، وأن اختلاف الأمم بين الحق والباطل أمر به افترق الناس إلى ملل كثيرة وأن يوم القيامة هو يوم الفصل بينهم لمشاهدة جزاء أهل الحق وجزاء أهل الباطل، وأن المهتدين والمبطلين خصمان اختصموا في أمر الله فكان لكل فريق جزاؤه، وفي السورة تعريض بهم بتكبرهم عن سنة إبراهيم عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين، وتذكير لهم بما من الله عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته، وتنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم الغابرة الذين تلقوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر فحل بهم العذاب، وأنه يوشك أن يحل بهؤلاء مثله فلا يغرهم تأخير العذاب فإنه إملاء من الله لهم كما أملى للأمم من قبلهم وفي ذلك بشارة للمؤمنين بعاقبة النصر على الذين فتنوهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ وقوله ﴿لَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود، فما نراه من هدم دور العبادة دليل على امتناع التدافع، وهذا يُهيب

بأهل الإسلام إلى التألب على مقاومة أهل الشرك. وسلى الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن الشيطان يفسد في قلوب أهل الضلالة آثار دعوة الرسل ولكن الله يحكم دينه ويبطل ما يلقي الشيطان فلذلك ترى الكافرين يعرضون وينكرون آيات القرآن، وفيها التنويه بالقرآن والمتلقين له بخشية وصبر ووصف الكفار بكراهيتهم القرآن وبغض المرسل به، وفيها الإذن للمسلمين بالقتال وضمان النصر والتمكين في الأرض لهم، ثم نبّه تعالى في آخر السورة إلى وجوب الحذر من مخادعة المشركين فقال ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي في الخلافة والحكم! والآية وردت بعد قوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ ليبني عليه قوله ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ففي الآية الأولى بيّن تعالى انفراده بالإلهية وفرّع عليه الأمر بالانقياد الكلي والامتثال لأوامره ونواهيه خالصاً لوجهه من غير شائبة إشراك، وفي الآية الثانية دعوة إلى إفراده تعالى بالربوبية ولذلك قال ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى توحيد الربوبية، والمقصود من الآية – والله أعلم – إلزامهم باتّباعك والثبات على التوحيد ثباتاً لا يطمعون أن يخدعوك بما يلقيه الشيطان إليهم من الشبه ليزيلوك عنه فإن لم يستجيبوا لك فلهم شرعتهم ولك شرعة أخرى ولهم منهاجهم ولك منهاج آخر حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وهو المعنى المعبر عنه بالنسك في الآية الثانية ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ قال الإمام الرازي: المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس في رواية عطاء واختيار القفال وهو الأقرب لقوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. اهـ. والمَنسَك: اسم مكان النُّسُك، وأصل النسك العبادة وشاع في أعمال الحج ومنها: القربان المشار إليه بقوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ

عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ فالنسك هنا هو موضع القربان، والكلام عطف على قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ وهو من تتمة الكلام مع المؤمنين، والمقصود من هذا الرد على المشركين المتلاعبين بالدين بطريق التعريض إذ اتخذوا آلهة على حسب أهوائهم! وقد تضمن الكلام متاركتهم في أماكن إهراق الدماء أي المسالخ التي أنشؤوها، فالحفاة العراة لا تحل ذبائحهم لأنهم لم يدينوا دين الحق وشابوا عبادة الله بعبادة غيره وخلطوا أمور الشرك بأديانهم واتخذوا آلهة في الحكم والعبادة وموّهوا على الناس، وإن الطريق لتمكين الإسلام وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ وهكذا جعل الله لكل أمة منسكاً هم ناسكوه ومنهجاً هم سالكوه، واسم ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ هنا مجمل مراد به الحكم بالقرينة، وأصحاب ميثاق الدرعية يزعمون أنهم على ملة إبراهيم فكان قوله تعالى ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ﴾ كشفاً لشبهتهم إذ أن الحج رمز توحيد الله، وبيت الله مركز حكم المسلمين، وهذا المحمل هو المناسب لتناسق الضمائر العائدة على المشركين من أهل الكتاب لأن هذه السورة نزلت بالمدينة، فجاء التحذير للأمة المسلمة ألا تدع للأمة المشركة فرصةً لمنازعة الحكم، والآية تربط بين الشعائر التعبدية وبين الحكم...وآية الحج تحذر من مكرهم في إبطال الحَكَمية وهي تتضمن فحوى رسالة القرآن الكريم، وكانت المتاركة هي الطريقة في التعامل مع هؤلاء المشركين خلال أكبر اجتماع عالمي للمسلمين في موسم الحج حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ إذ لا لقاء بين الحق والباطل، نحن هنا وأنتم هناك، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا معبر ولا طريق بيننا وبينكم...وفي قوله ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا

تَعۡمَلُونَ﴾ تفويض أمرهم إلى الله تعالى وهو كناية عن قطع المجادلة معهم وإدماج بتعريضٍ بالوعيد والإنذار بكلام موجّه صالح لما يتظاهرون به من تطلب الحجة ولما يعملونه من أنواع المجادلة بالباطل ليُدحضوا ويُزيلوا الحق ولما في نفوسهم من إبطان العناد كقوله تعالى ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ ولّما دعا إلى الإعراض عن الجدال معهم أعقب معجّباً من شأنهم في مكابرتهم وإصرارهم على عبادة الآلهة واتخاذ الشركاء ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ والمعنى: جادلوك في الدين بعد ما رأوا الدلائل البينات والحجج الواضحات مستمرين على عبادة ما لا يستحق العبادة و لم يُنزل به الله أمراً إلهياً وارداً على ألْسنة رسله وفي كتبه وشرائعه، وإسناد نفي العلم إليهم منظور فيه إلى الغرض التعريضي وهو المكابرة والعناد، وفي قوله تعالى ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ من المبالغة في الإقناط ما لا يخفى! أي أنهم عبدوهم رجاء النصر، وما للمشركين من نصير كما حكى سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾ وفي سورة الحج دعوة إلى متاركتهم في أكبر اجتماع عالمي في موسم الحج كما كانت المتاركة بين المشركين والمسلمين قبل فتح مكة أيام الحج، والمسلم الذي لا يملك القدرة على مفارقة المشركين في مناسك الحج يمتنع وجوب الحج عليه، فلا تقارب ولا تمييع ولا إدهان بدءاً من مناسك الحج وأماكن العبادة وإهراق دماء الهدي...وما يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق ولا في أي طريق، وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان، جاهلية الأمس وجاهلية اليوم وجاهلية الغد كلها سواء لا تقام عليها قنطرة للعبور وإنما هو البراء الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق، ومتابعة المسلم لبني إسرائيل في أدنى جزئية لا تعتمد على الاعتراف بسلطان الله بعد الذي جاءه من العلم يعني خروجه من الإسلام إلى الشرك،

وقد حذر المولى سبحانه من أكل ذبائح المشركين وقرن ذلك بالشرك وقول الزور ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ وجيء بالمضارع في قوله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ليشمل ما يأتي تصديقه من بعد، وعبّر عن الشرك بالرجس من الأوثان، لأن الشرك اعتداء على سلطان الله، وأمر باجتناب قول الزور لأن إلباس التوحيد بالشرك افتراء على الله وزور؛ ولذلك جاء التغليظ في متاركة الجاهلية الخداعة واتباع الملة الحنيفية ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي تكونوا إن اجتنبتم ذلك حنفاء لله وتكونوا على ملة إبراهيم حقاً، ولذلك زاد معنى ﴿حُنَفَآءَ﴾ الولاء والبراء بقوله ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وهذا كقوله ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ والشرك بالله دنس يلوث القلوب ويصيبها بالقسوة والانتكاس ويجلب الأمراض النفسية ويضرب الأمم بالأوجاع والأدواء المستعصية ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ وقُرئ ﴿فَتَخَطَّفُهُ﴾ بفتح الخاء وتشديد الطاء، وهذا حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد فيهوي إلى درك الشرك فإذا هو ضائع ذاهب بددا كأن لم يكن من قبل أبدا، يهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء، ويفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها – قاعدة التوحيد – ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه ويفقد السعادة والأمن والاطمئنان بعد ما فقد العروة الوثقى والقاعدة الثابتة التي تربطه بخالقه فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح...وقد أشارت الآية إلى أن المشركين قسمان: قسم شِركُهُ ذبذبة وشكّ، فهذا مشبّه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه، وهو إيماء إلى أتباع بني

إسرائيل، وقسم مصمّم على الكفر مستقر فيه فهو مشبّه بمن ألقته الريح في المطاوح البعيدة، وهو إيماء إلى بني إسرائيل حيث أن شركهم لا يرجى منه خلاص وتوبتهم أمر بعيد عسير الحصول. ثم ختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم وأن الله اصطفى خلقاً من الملائكة ومن الناس فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى جهاد أدعياء الإسلام وإقامة دين الإسلام ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه – كما جاء في الصحيحين – فما سُئل عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج» وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة» رواه الإمام أحمد، وفي رواية له: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة» وفي رواية أخرى: «إن خير دينكم أيسرُه، إن خير دينكم أيسرُه» وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» وفي رواية: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» فهذه الحنيفية السمحة، لا تشدد ولا حرج، والحفاة العراة شدّدوا على المسلمين الذين ساروا بسيرهم وأخذوا بمنهجهم، وتلك الشدة هي التي حملها الله على أهل الكتاب فجاءت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش منحة للأمة المحمدية ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾ وكم قتلوا من المسلمين بفتاواهم وشددوا عليهم بما وضعوه من مناهج حملوهم بها على تكفير بعضهم البعض وضرب بعضهم رقاب بعض!

كما جاء في صحيح الإمام مسلم: «إن الفتنة تجيء من هاهنا من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض» وفي الحديث من أدلة النبوة المشاهدة ما لا ينكرها المسلمون إذ فرقهم أولياء الشيطان شيعاً وأحزاباً يضرب بعضهم رقاب بعض فصاروا على مناهجهم ينون فيما يأتون ويذرون.

روى الإمام الترمذي عن الحارث الأشعري: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أنا آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وتَعدَّوا على الشُرَف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وإن مَثَل من أشرك بالله كمَثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورِق فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدِّ إليّ فكان يعمل ويؤدّي إلى غير سيّده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم، وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى» قال النبي صلى الله عليه وآله

وسلم: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثا جهنم» فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ قال: «وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله».

الفصل الخامس: الإيمان

لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله» والإيمان لغة: التصديق، وشرعاً: التصديق بما علم من الدين بالضرورة وإن شئت قلت: تصديق القلب واعتقاده القاطع الجازم بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من عند ربه. وبين الإيمان والإسلام فرق ظاهر ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام علانية والإيمان في القلب» وورد إطلاق الإيمان على ما يعم الإسلام كما روى ابن ماجه عن سيدنا علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان» وروى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقبل إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان» والدليل على أن محل الإيمان "القلب" آيات كثيرة وأحاديث شهيرة فمن الآيات قوله عز شأنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ ومن الأحاديث النبوية قوله عليه الصلاة والسلام لسيدنا أسامة رضي الله عنه حين قتل من قال لا إله إلا الله: «هلا شققت عن قلبه؟» ومذهب أهل السنة والجماعة أن الأعمال خارجة عن حقيقة الإيمان فمن صدق بقلبه وأقر بلسانه فهو مسلم مؤمن موحد وينفعه إيمانه يوم القيامة وإن كان يعذب على ترك الطاعات وإهمال العبادات لكنه لا يخلد في العذاب ومآبه إلى جنة النعيم وهذا ما عليه الأئمة الأنجاب وأما المعتزلة فإنهم ضلوا عن طريق الصواب وقالوا بأن الإيمان هو التصديق والنطق وسائر الطاعات والأعمال الصالحات وترك المعاصي والمنكرات وزعموا بأن من صدق في قلبه وأذعن باللسان فليس من أهل الإيمان حتى يفعل جميع المأمورات وينتهي عن جميع

المنهيات وزعموا أن من فعل كبيرة فهو كافر مخلد في النيران باق في دار الهوان وهذا زعم باطل وكلام بلا طائل، نعم لا ريب في أن كمال الإيمان إنما يكون بالاعتقاد بالجنان والنطق باللسان والعمل بالأركان وعليه يحمل كلام السلف المتقدمين فيوافق ما صرح به أكابر المتأخرين، وقد أجمع علماء هذا الدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين على أن شرط صحة العبادات وجود الإيمان ولا ريب في أن الشرط غير المشروط فإن الطهارة مثلاً شرط في صحة الصلاة ولا شك أن الطهارة غير الصلاة بل كون العبادات أمراً آخر غير الإيمان مستفاد من صريح الآيات فإنه تعالى عطف الأعمال على الإيمان فقال ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ والإيمان بالله: ما قام بالقلب من الاعتقاد الجازم بأن الله حق واجب الوجود وأنه سبحانه متصف بالكمالات المطلقة التي لا نهاية لها منزه عن الآفات والنقائص وتحقيق التصديق والانقياد لأمره والدينونة له تعالى والاعتراف بربوبيته وألوهيته. فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله» والحفاة العراة نازعوا الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته ثم ادعوا الإيمان به على وجه الاستهزاء وهذا من أغلظ الكفر والعياذ بالله! قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقال سبحانه ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وقال فيهم ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وقال جل وعلا ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ وقال عز وجل ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا

رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ وقال سبحانه ﴿**وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ** وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وقال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ **ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ** وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ والخطاب لمنافقي أهل الكتاب الذين قالوا آمنا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم، والتقدير: يا أيها الذين آمنوا باللسان آمِنوا بالقلب، وقد قرّر هذا المعنى وأكده بالعطف على أركان الإيمان ﴿**وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ** وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

«و ملائكته»

مجمل الإيمان بالملائكة هو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى خلق عالَماً أسماه بالملائكة وهم أرواح قائمة في أجسام لطيفة نورانية قادرة على التمثل بأمثلة مختلفة بإذنه تعالى لا يوصفون بأنوثة ولا ذكورة فهم عالم حقيقي الوجود غيبي عن العيان المشهود كرام بررة وسطاء سفرة أنقياء أقوياء مبعوثون من الله عز وجل إلى البشر أذن لهم في تدبير المكونات بأمره تعالى إظهاراً لسلطان ربوبيته وعظمة ملكه، والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان، وأفضل الإيمان هو الإيمان بالغيب، وما آمن مؤمن أفضل من إيمانه بالغيب، وكان أول مدح للمتقين في القرآن أنهم يصدقون بما أخبرت به الشرائع من المغيبات ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وذلك يتضمن الإيمان بالملائكة، وقص الله تعالى نبأ الملائكة في سورة المدثر وهي أول سورة نزلت في تبليغ الرسالة، وانصباب الكلام فيها إلى أهل الكتاب ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وقد اتخذ أهل الكتاب الملائكة أرباباً في العبادة ونسبوهم إلى الضّعف، وجعلوا لهم

وصف الأنوثة وهم يتعيرون بأبي الإناث! ثم اتخذوا شركاء من الجن في الحكم ونسبوا القوة إليهم كما حكى تعالى مستنكراً عليهم ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ وزعموا أن الله سبحانه صاهر زعماء الجن فكانت منهم الملائكة، كما حكى تعالى ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ۝١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ والكلام متصل بمطلع السورة ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗا وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ وكون الملائكة تتلقف شياطين الجن بالشهب وتقذفهم من كل جانب وتدحرهم دحراً يقتضي إبطال دعاوى المشركين الكاذبة وسقوط قوى شياطينهم الزائفة. وقال سبحانه ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ والمعنى: أنا منكرون عبادتهم إيّانا و لم نأمرهم بها ولكنهم عبدوا شياطين الجن فسوّلوا لهم عبادتنا، والمقصد من المحاورة إبطال قولهم في الملائكة إنهم بنات الله! والإشارة بهؤلاء إلى بني إسرائيل الحاضرين الذين أشركوا الملائكة بعبادة ربهم، كما أشركوا النبيين وزعموا أن الله هو المسيح ابن مريم، وأن عزيراً ابن الله والمسيح ابن الله، وأن الله ثالث ثلاثة، وجعلوا له من عباده جزءاً، ووضعوا هذا الخليط العجيب من العقائد الباطلة التي تحار فيها العقول، والأمة إذا انغمست

في الجهالة وصارت عقائدها غروراً ومن دون تدبر اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل واجتمعت في عقائدها المتناقضات، وقد أدّى هذا التناقض إلى خروج المجتمعات الغربية اليوم من الأديان جملة إلى الإلحاد، ومراد بني إسرائيل أن يحوّلوهم إلى عبادتهم على مبدأ ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وطابعهم الأصيل هو تحريف نصوص الكتب السماوية عن صورتها التي أنزلها الله، وتبديل كل ما يقف في طريقهم من هذه النصوص، وحين يلبسون لباس الإسلام يلوون أعناق هذه النصوص لتوافق أهواءهم ومصالحهم ويبذلون جهداً لاهثاً في تصيد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول نص من الكتاب وهوى من الأهواء التي يهمهم تمليقها، فيتلمسون الآيات التي تحذر من الشرك فيلوون ألسنتهم في تأويلها أو تحريفها وتبديلها ليوهموا الدهماء أن هذه المدلولات هي ما قاله الله! قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ والكلام تنزيه لأنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام إثر تنزيه الله تعالى عن نسبة ما افتراه أهل الكتاب إليه، والمعنى: ما كان لنبي أن يؤتيه الله العلم والحكم ثم يشرك في الحكم ويصرف الناس عن عبادة الله إلى عبادته ولكن يقول لهم: كونوا ربانيين – فأضمر القول على حسب مذهب العرب في جواز الإضمار إذا كان في الكلام ما يدل عليه – بما كنتم تُعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، والآيات تحكي هذا الفريق من أهل الكتاب الذين اتخذوا أرباباً من الجن والإنس في الحكم، ثم اتخذوا أرباباً من الملائكة والنبيين في العبادة كما دلّ السياق...ولمّا بيّن السياق أن عادتهم التحريف والتبديل أتبعه بما يدل على أن من جملة ما

حرّفوه توحيد الربوبية، وخص الملائكة والنبيين بالذكر لأن أهل الكتاب صرفوا الأمم من توحيد الحكم إلى عبادة الملائكة والنبيين ليلبسوا الحق بالباطل.

«وكتبه»

مجمل الإيمان بكتب الله تعالى هو الاعتقاد الجازم بأن الله أنزل على رسله كتباً مشتملة على هدي العباد وبيان ما فيه صلاح دنياهم وآخرهم بالحكم البالغة والحجج الدامغة والبراهين الساطعة اللامعة يتعهد عباده بالإسعاد والإرشاد ويحسن تربيتهم بإنزال التعاليم الإلهية والأنظمة الشرعية والتوجيهات الأدبية الخُلقية ليفوزوا بالسعادات الأبدية، والقرآن الكريم مشتمل على جميع الكتب الإلهية كما أشارت الرواية الأخرى: «وكتابه» أي القرآن الذي هو زبدة الكتب الإلهية المتقدمة ومجمع ثمرتها، وفيه إشارة إلى أن هذا الكتاب فينا كما لو كان فينا خليفة من أولي العزم من الرسل يرشدنا في كل أمر إلى صواب المخرج منه فمن أعرض خاب ومن تردد كاد ومن أجاب اتقى وأجاد. وقال تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ وقد دخل الإيمان بالقضاء والقدر تحت قوله سبحانه ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ ودخل الإيمان بالآخرة في قوله تعالى ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وفي قراءة أخرى ﴿وَكِتَابِهِۦ﴾ واستغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع، والمعنى والمؤمنون آمنوا تبعاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم تصديقاً وعملاً وقولاً و لم يكن إيمان المؤمنين بالله عن عاطفة واندفاع دون علم وتعقل بل تعقلوا وتفهموا وظهر لهم الحق فلم يسعهم إلا أن يؤمنوا فآمنوا لأن الإيمان لا يكون إلا عن علم. وأهل الكتاب فرقوا بين الكتب المنزلة كما حكى تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ وفي قوله تعالى ﴿وَهُوَ

ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ إشارة إلى ما أخذه الله عليهم من توحيده وعدم الإشراك به تعالى، وهو موافق لما في كتبهم ومصدق لها، قال الإمام الطبري في تأويل قوله تعالى ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهذا أمر من الله تعالى ذِكرُه نبيَّه صلى الله عليه وآله وسلم بإبلاغ اليهود والنصارى الذين كانوا بين ظهراني مهاجره يقول تعالى ذكره له: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ التوراة والإنجيل، لستم على شيء مما تدعون أنكم عليه مما جاءكم به موسى عليه الصلاة والسلام معشر اليهود ولا مما جاءكم به عيسى عليه الصلاة والسلام معشر النصارى حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم مما جاءكم به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الفرقان فتعملوا بذلك كله وتؤمنوا بما فيه من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وتصديقه وتقروا بأن كل ذلك من عند الله فلا تكذبوا بشيء منه ولا تفرقوا بين رسل الله فتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض فإن الكفر بواحد من ذلك كفر بجميعه لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً فمن كذب ببعضها فقد كذب بجميعها، وبنحو ما قلنا في ذلك جاء الأثر: حدثنا هناد بن السري وأبو كريب قالا: حدثنا يونس بن بكير قال: حدثنا محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: جاء رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم رافعُ بن حارثة – من بني قينقاع – وسلام بن مشكم – من بني النضير – ومالك بن الصيف – من بني قينقاع – ورافع بن حريملة – من بني قينقاع – فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق

وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس وأنا بريء من أحداثكم» قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الحق والهدى ولا نؤمن بك ولا نتبعك. فأنزل الله الآية. ومعنى قوله ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي القرآن الذي جاءهم به السيد الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما دلَّت عليه الآية المتقدمة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ ويؤيده ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ يعني: ما أنزل إليهم من الفرقان. اهـــ. وهذا الفرقان يجابههم بحقيقة موقفهم ويصفهم بصفتهم التي يداروها بمظهر الإسلام! بينما هم في حقيقتهم كفار، يكفرون بالربوبية، وهذا كفر بالكتاب كله، فحقيقة الدين واحدة، من عرفها عرف ما جاءت به الرسل والرسالات وأوجب على نفسه الإسلام لله وهي حقيقة من شأنها أن تهزهم وأن تخوفهم عاقبة ما هم فيه.

«ورسله»

مجمل الإيمان بالرسل عليهم السلام: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولاً يدلهم على كل خير ويحذرهم من كل شر في دنياهم وآخرتهم كما ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم» والرسل هم البشر الذين أرسلهم الله تعالى إلى الخلق بالإسلام والدعوة إلى التوحيد وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ شرائعه، وهم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام ولم يتفرقوا في أصول الدين حسبما يحكيه قوله سبحانه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ والتفريق بين الرسل من عوائد أهل الكتاب إذ آمنت طائفة منهم بعزير وكفرت بالمسيح،

وآمنت طائفة بالمسيح وكفرت بعزير وكانوا يؤمنون بالنبي ويكفرون بالآخر! وهذا في معنى الآية ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ والأمر بالقول أمرٌ بما يتضمنه إذ لا اعتداد بالقول إلا لأنه يطابق العمل، إذ النسبة إنما وضعت للصدق لا للكذب، فالمقصود من الأمر بهذا القول: العمل به والدعوة إليه لما يشتمل عليه من الفضيلة الظاهرة بحصول فضيلة سائر الأديان لأهل هاته الملة التي بيّنها السياق من إفراده تعالى بالوحدانية المطلقة، ليرغب في ذلك الراغبون ويكمد عند سماعه المعاندون، وإفراد الضمير في الآيتين؛ السابقة ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا﴾ واللاحقة ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا﴾ للنبي عليه الصلاة والسلام فيهما مزيد اختصاص بمباشرة الرد على اليهود والنصارى لأنه مبعوث لإرشادهم وزجرهم، وجمع الضمير ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إعلام بشمول الأمة المسلمة مع نبيها وتنويه بشأنها إذ أنها مكلفة بالقيام بدعوته صلى الله عليه وآله وسلم، فبعد أن أفرد الضمير في ﴿قُلۡ﴾ جمع الضمائر في ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ و﴿رَبُّنَا﴾ و﴿لَنَآ﴾ و﴿أَعۡمَٰلُنَا﴾ و﴿نَحۡنُ﴾ و﴿مُخۡلِصُونَ﴾ فانظر بدائع النظم في هاته الآيات ودلائل إعجازها...وقد بين القرآن حقيقتهم بلسان الحال ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ﴾ وسياق الآية يدعو بني إسرائيل إلى الإيمان بهذا الدين الواحد الذي أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وهو دين الإسلام الذي أنزل إلينا وأنزل إليهم، والأنبياء جعلهم الله قدوة سلوكية ونماذج تطبيقية في الأرض إذ كانوا أمناء وحيه، وألسنة أمره ونهيه، وسفراءه إلى خلقه، وفي تخصيص موسى وعيسى بالذكر ما لا يخفى من الدلالة على معالجتهما بني إسرائيل أشد المعالجة لتقرير وحدانية الله. وقد وردت الآية ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ في سياق قصة

العهد مع إبراهيم وقصة رفعه لقواعد البيت الحرام مع إسماعيل ووراثة بني إسماعيل من قريش البيت الحرام، وكشف السياق ادعاءات أهل الكتاب وأردف معرّضاً بهم ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ وأورد وصية يعقوب لبنيه مشيراً إلى الحكم والاستخلاف في البيت الحرام ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ثم ذكر تعالى ما هم عليه من دعوى الباطل والدعاء إليه وزعمهم أن الهداية في اتباعهم كاشفاً حقيقة من خانوا الوصية ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ وبعد كشف هذه الملابسات يجيء الأمر الإلهي لبني إسرائيل بالإيمان بما جاءت به الرسالات كلها على اختلاف شرائعها وفروعها ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ...﴾ ثم تكرر الأمر أخرى في السورة التي تليها في سياق الميثاق الذي أخذه الله على النبيين بالإيمان بالسيد الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونصرته في مشهد عجيب يُظهر التعظيم العظيم له من ربه ويُبدي رفيع منزلته وعلو مكانته ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ...قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ...﴾ والله عز وجل يقرر في الآيتين حقيقة التوحيد ووحدة الرسالة بين أنبيائه ورسله عليهم السلام ووحدة الإنسانية ووحدة دين الله المنزل إليها، وعُدّي الإنزال في الآية الأولى بحرف الانتهاء وفي الآية الثانية بحرف الاستعلاء لوجود المعنيين: العلوّ والوصول جميعاً، وقد خص الله تعالى موسى وعيسى بالذكر ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ ثم عمّم جميع النبيين ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي لا نقول: إنهم متفرقون في أصول الدين بل هم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام، وإقرارنا بنبوتهم لكوننا

منقادين لله مستسلمين لحكمه وأمره، والتفريق بين النبيين يستلزم التفريق بينهم وبين الله تعالى، وفي هذا تعريض بأهل الكتاب كما حكى الله عنهم بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ وجيء بالمضارع هنا للدلالة على أن هذا أمر متجدد فيهم مستمرّ.

«واليوم الآخر»

قضية اليوم الآخر هي القضية المفصلية التي يتكرر ذكرها في القرآن الكريم ويواجه بها المشركين المخادعين بين الحين والحين ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وكانوا قد ألصقوا به تخيّلات تنافي حقيقة الجزاء كقولهم ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ وهذا القول في حقيقته كفرٌ في صورة السخرية والاستهزاء! ولما ذكر تعالى أحوال بني إسرائيل الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، ذكر تكذيبهم باليوم الآخر فقال ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وأصل الحبوط انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلأ ثم تلقى حتفها، إذ تنتفخ؛ وأصحابها يحسبونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار، وهو وصف بليغ، وفي الآية دلالة على عظيم مكر الله بهؤلاء المهازيل، إذ أبطل أعمالهم وجعل إيمانهم بالله واليوم الآخر كلا إيمان، وإن كتبوا مئات الرسائل والفتاوى ليخادعوا الله والذين آمنوا...قال تعالى ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ والآية نزلت في اليهود والنصارى، وفائدة ذكر ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التنديد عليهم بأنهم أوتوا الكتاب ولم يدينوا دين الحق الذي جاءت به الكتب السماوية وتشنيع حالهم وتبيين حقيقتهم وفضح أمرهم وكشف واقعهم وإنما دانوا بما حرّفوا منها، وما أنكروا منها، وما ألصقوا بها،

ولو دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام المنزل من الحكيم العلام. وقال تعالى ممتناً عليهم بالاستخلاف في الأرض بعد إهلاك فرعون ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ قال الإمام الفخر الرازي: والمعنى جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر أخلاطاً يعني جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر. ولما ثبت أمر الحشر بإثبات القدرة على كل ممكن تارة وبإعلام بني إسرائيل الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ثبت أن هذا القرآن المخبر بذلك حق ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ قال المفسرون: كان وعده بالقيامة والحساب والجزاء مفعولاً كائناً لا محالة ولا شك فيه ولا خلاف. وبالجملة فقد أخبر الحق عن أحوال ثلاثة متلبسون بها ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي تدارك علمهم في الآخرة لوصول الرسل والنذر إليهم وتحقق الموعود به، بل هم في شك من وقوعها، بل هم منها عمون عمي قلب وبصيرة! وقد جاءت طريقة التدرج بالإضراب الانتقالي أجزل وأبهج وأروع وأدل على أن كلاً من هذه الأحوال المترتبة جدير بأن يعتبر فيه المعتبر.

«وتؤمن بالبعث»

وفي رواية: «وتؤمن بالبعث الآخر» لما ذكر المولى سبحانه في سورة الجاثية إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وحذَّر من اتّباع أهوائهم وأخبر عنهم بأنهم اتخذوا إلههم هواهم، أعقب ذلك ببيان أنهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء فقال ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ولما كان هذا من قولهم عجباً،

زاده عجباً بحالهم عند سماعهم للبراهين القطعية فقال ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولما كان سبحانه إنما يقبل الإيمان عند إمكان تصوره وذلك إذا كان بالغيب لم يجبهم إلى إحياء آبائهم إكراماً لهذه الأمة لشرف نبيها عليه أفضل الصلاة والسلام لأن سنته الإلهية جرت بأن من لم يؤمن بعد كشف الأمر بإيجاد الآيات المقترحات أهلكه كما فعل بالأمم الماضية فرفعهم عن الحس إلى التدريب على الحجج العقلية فقال آمراً له صلى الله عليه وآله وسلم بالجواب بقوله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يتجدد لهم علم لما لهم من السفول عن أوج العقل إلى حضيض الجهل فهم واقفون مع المحسوسات! ولما دل على قدرته على الإعادة بهذا الدليل الخاص، عطف عليه دليلاً آخر جامعاً فقال ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ والمبطلون هم المستهزئون الذين يغطّون وجه الحق ويسترونه بدخان الباطل والضلال فيشتبه على الناس وجه الحق وتتفرق بهم السبل إليه! ولما كان ذلك من شأن اليوم مهولاً، عم في الهول بقوله مصوراً لحاله ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولما أخبر بالجزاء، بين كيفية ما به يطبق بين كتاب الإنزال وكتاب الأعمال فما حكم به كتاب الإنزال أنفذه الكبير المتعال فقال مشيراً إلى كتاب الإنزال بأداة القريب لقربه وسهولة فهمه ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم صرح بما لوح به من أمر المحقين وعطف عليهم أضدادهم فقال بادئاً بهم على طريق النشر المشوش مفصلاً ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ وهذا لا ينافي الآية المتقدمة ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ لأن آخرها مثبت للظن فكأنهم كانوا تارة يقوى عندهم ما في جبلاتهم وفطرهم الأولى من أمرها فيظنونها وتارة تقوى عليهم الحظوظ مع ما يقترن بها من الشبهة المبنية على الجهل فيظنون عدمها فيقطعون به لما للنفس إليه من الميل. وفي سورة البقرة أمر تعالى بني إسرائيل بضرب المقتول بعضو من أعضاء البقرة احتجاجاً عليهم في صحة الإعادة لأنهم لم يكونوا مؤمنين باليوم الآخر ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾ وظاهر الكلام يدل على أن الله تعالى قال لبني إسرائيل: إحياء الله تعالى لسائر الموتى يكون مثل هذا الإحياء الذي شاهدتم فكان ذلك دالاً على الاقتدار على البعث الذي السياق كله له ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي رجاء أن يحصل لكم عقل فيرشدكم إلى اعتقاد البعث الذي كانت قصة البقرة دليلاً عليه. وفي سورة طه لما ذكر الحق سبحانه لموسى عليه السلام أن الساعة آتية لا ريب فيها، أردف ذلك بتزييف مزاعم من لا يؤمن بها ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ وذلك تعريض ببني إسرائيل في أنهم لا يؤمنون بها. ونظيره قوله جل شأنه ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي آتيناه الكتاب جامعاً لكل ما ذكر ليجعل قومه محل رجاء للإيمان بالبعث بعد الموت وهذا لا يقال للمؤمن. وحين ذكر الحق تعالى في سورة غافر ما منّ به على بني إسرائيل من إيراثهم الكتاب، أردف ذلك بالإنحاء على جدالهم فيه ثم قال ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والمراد بالناس هنا خصوص بني إسرائيل كما يقتضيه السياق. وفي سورة الكهف ذكر عز وجل زعم أولياء الشيطان أنه سبحانه لن يجعل لهم

وقتاً ينجز فيه ما وعدهم من البعث وما يتبعه فقال ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ ثم أورد قصة إبليس وتكبره على آدم وترفعه عليه وأنكر عليهم في أسلوب الخطاب – لأنه أوجع في التبكيت – اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دونه تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ وفي سورة سبأ ذكر الحق أن إبليس سوّل لأوليائه التكذيب بالبعث ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ والأظهر أن هذا عطف على قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وأن ما بينهما من الأخبار المسوقة للاعتبار واقع موقع الاستطراد والاعتراض فيكون ضمير عليهم عائداً إلى الذين كفروا من قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ ويحققه قوله بعده ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ وهذا من تسويلات القرين كما في قوله تعالى ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي كان لي شيطان يقول مكذباً بالبعث مستبعداً له غاية الاستبعاد مجدداً لقوله في كل وقت يريد أن يخدعني بلطافة قياده إلى سوء اعتقاده: أئنك لمن المصدقين بالبعث؟ يوبخني بذلك ويستقصر باعي في النظر استثارة لهمتي وإلهاباً لنخوتي وحميتي ويكرر الإنكار بقوله: أئذا متنا وذهبت أوراحنا وكنا تراباً وعظاماً فانمحقت أجسامنا التي هي مراكب الأرواح أئنا لمجزيون بعد ذلك بما عملنا بأن نبعث ونجازى؟ وفي سورة البقرة وردت قصة إبليس نحو آدم عقب قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي سورة

الأعراف افتتحت القصة بالإخبار عن جزاء الأعمال يوم القيامة والفصل بين الخلائق ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ وذيلت بالإخبار عن حياتهم في الأرض وموتهم وبعثهم للحساب يوم القيامة ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ولما ذكر الله تعالى في سورة الحجر قوله ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أردف ذلك بقصة إبليس وآدم ثم ذكر أحوالهم في النار...وفي سورة بني إسرائيل وردت قصة إبليس وترفعه على آدم بين الآية ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وبين الآية ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وفي سورة طه تقدم القصة قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ثم ختمت بذكر وعيد في الآخرة بعد وعيد...وفي سورة الشعراء ذكر الحق كبكبتهم مع جنود إبليس في الجحيم ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ وفي سورة صاد تقدم قصة إبليس وآدم ذكر أحوالهم في النار...فهذه إحدى عشرة مرة ذكر فيها شيخهم اللعين إبليس في القرآن الكريم. وقد توسم اللعين في المستخلفين الانخداع له فألقى إليهم وسوسته وحبَّب إليهم التكذيب بالبعث فصدق توسُّمه فيهم! وحقيق بمن كان إبليس اللعين قرينه وصفيّه، والشيطان الرجيم نصيره ووليّه، أن يصل لمثل ذلك، ويقع في أودية المهالك! وقد حكى تعالى قولهم في ذلك اليوم على سبيل التوبيخ والتوقيف ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وخاطبهم ابتداء في سورة الحج من قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ وحكى عز وجل شدة توغلهم في النفاق وأنهم سيحلفون يوم القيامة كذباً كما يحلفون لأوليائه في الدنيا ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وحكى تعالى زعمهم

الكاذب ووجَّه المؤمن إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ كما حكى تعالى قول أوليائهم من الجن ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾ وقال سبحانه ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ وقال جل شأنه ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ وروى البيهقي في شعب الإيمان أن رجلاً قال: يارسول الله فما اليقين؟ قال: «التصديق بالقيامة» ونحوه قوله سبحانه ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ وقد ورد الإيمان بالبعث الآخر في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» وفي هذا إيماء إلى البعث الأول المتعلق بزوال مُلك الحفاة العراة، قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ولّما كانت القضية تتعلق بالغيب جاء العطف بصفة الإيمان فقال ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ ومعنى قوله ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ﴾ أي يوم الوعد وهو وعد في الدنيا بالنصر، ثم وعدٌ وبعث يوم القيامة أشارت إليه العبارة التالية ﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ وسمي يوم الوعد في الدنيا بيوم البعث لأن الله يبعث عباداً له ليتبروا دولة الباطل ويقيموا دولة الحق...وتأويل الآية: أن الذين أوتوا العلم والإيمان في كتاب الله ينذرون أهل الباطل بنزول العذاب عليهم في الدنيا فإذا جاء أجلهم وزالت دولتهم قالوا: لقد لبثتم ما كتبه الله لكم من الأجل المضروب لكم في الدنيا، ثم يقولون لهم في الآخرة حين يكشف الله

عنهم غطاءهم: فهذا يوم البعث - يعني البعث الآخر - ولكنكم كنتم لا تعلمون، ونظير هذا قوله تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ وقال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ - أي في الدنيا - وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ والاستدراك في ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ استدراك على ما تضمنته جملة ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ﴾ أي لقد بلغكم ذلك وكان الشأن أن تتصدوا للعلم وتؤمنوا ولكنكم كنتم لا تعلمون، أي: لا تتصدون للعلم بما فيه النفع بل كان دأبكم الإعراض عن كلام الله، وفي التعبير بنفي العلم وقصدِ نفي الاهتمام به والعناية بتلقيه إشارة إلى أن التصدي للتعلم وسيلة لحصوله، وقد ختمت السورة بالتبيث بهذا الوعد الصادق الذي لا يخون حاملاً معه الصبر على محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لا يوقنون ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

«وتؤمن بالقدر خيره وشره»

وفي رواية أخرى: «وتؤمن بالقدر كله» وهو الإيمان بأن الله سبحانه قدر الأشياء؛ أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه سبحانه؛ كما نص عليه القرآن والسنة، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ وهم الحفاة العراة المتجاسرون على ركوب الكفر والمعاصي بالنقمة، القائلون بأن الأمر أنف وأن

أفعال العبد من قبله، قال ابن عباس: إني أجد في كتاب الله قوما يسحبون في النار على وجوههم لأنهم كانوا يكذبون بالقدر، ويقولون: المرء يخلق أفعاله، وإني لا أراهم، فلا أدري أشيء مضى قبلنا أم شيء بقي؟ وفي صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقوله: والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام...الحديث. وهذه لفتة هامة لا بد من الوقوف عندها لفهم واقع الحفاة العراة الذين حكى تعالى عنهم ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ والآية وردت في سياق الكلام عن المنافقين، وقد حكى تعالى عنهم في هذه الآية خصلة قبيحة دالة على كفرهم بالقدر، وبعد أن أمر الله رسوله بما يجيب به هؤلاء الضالّين علَّمه حقيقة التفصيل في إصابة الحسنة والسيئة من جهة تمحّض النسبة إلى الله تعالى أو اختلاطها بالانتساب إلى العبد فقال ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ ووُجِّه الخطاب للرسول لأنه المبلّغ عن الله، ولأن هذا الجواب لإبطال ما نَسبه الضالّون إليه من كونه مصدرَ السيّئات التي تصيبهم، واعلمْ أن الله قدّر المنافع والمضار وخلق مؤثراتها وأسبابها فهذا الجُزء لله وحده لقوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والله نصب الأدلة للناس على المنافع والمضار التي تكتسب بمختلف الأدلة وعَلَّم طرائقَ الوصول إليها وطرائق الحيدة عنها وأرشد إلى موانع التأثير لمن شاء

أن يُمانعها، وبعث الرسل وشَرع الشرائع فعلّمنا بذلك كله أحوال الأشياء ومنافعها ومضارّها، وعواقب ذلك في الدنيا والآخرة فأكمل المنّة وأقام الحُجة وقطع المعذرة، وأما الأسباب المقارنة للحوادث الحسنةِ والسيئةِ فذلك بمقدار ما يحصله الإنسان من وسائل الرشاد، وباختياره الصالحَ لاجتناء الخير، ومقداراً ضدّ ذلك: من غلبة الجهل أو غلبة الهوى ومن الارتماء في المهالك بدون تبصّر، وهذا الجزء جعل الله للإنسان حظّاً فيه، ملَّكَهُ إيّاه فإذا جاءت الحسنة أحداً فإن المنّة فيها لله وحده إذ لولا لطفه وإرشاده وهديه لكان الإنسان في حيرة، فصحّ أن الحسنة من الله، أمّا السيّئة فإنها وإن كانت من الله ولكن إصابة معظمها الإنسانَ يأتي من جهله أو تفريطه أو تغليب هواه على رشده، وقد فسَّر هذا المعنى ما ورد في سنن الترمذي عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر» ولكون هذه القضية دقيقة الفهم نبّه الله على قلة فهم المشركين للمعاني الخفية بقوله ﴿فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فقوله ﴿لَا يَكَادُونَ﴾ أي يكادون لا يفقهون، فيكون فيه استبقاءٌ عليهم في المذمّة، ويجوز أن يكون على أصل وضع التركيب أي لا يقارِبون فهم الحديث الذي لا يعقله إلا الفطناء فيكون أشدّ في المذمّة. وروى أبو داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «القدرية مجوس هذه الأمة: إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم».

الفصل السادس: الإحسان

قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وفي صحيح مسلم، قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: «أن تخشى الله كأنك تراه فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك» وفي مسند الإمام أحمد: «أن تعمل لله كأنك تراه فإنك إن لم تره فإنه يراك». والإحسان: الإخلاص أو إجادة العمل وهذا من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام إذ هو شامل لمقام المشاهدة ومقام المراقبة ويتضح لك ذلك بأن تعرف أن للعبد في عبادته مرتبتين: إحداهما: أن يعبد الله أي يوحده ويحفظ حدوده ويفي بعهوده وقد استغرق في بحار المكاشفة حتى كأنه يرى الله تعالى لحصول الاستلذاذ بالطاعة والراحة بالعبادة وانسداد مسالك الالتفات إلى الغير باستيلاء أنوار الكشف عليه وهو ثمرة امتلاء زوايا القلب من المحبوب واشتغال السرّ به ونتيجته نسيان الأحوال من المعلوم واضمحلال الرسوم وقد بينه بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه» والثانية: من لا ينتهي إلى تلك الحالة لكن يغلب عليه أن الله تعالى يشاهده وهذا هو مقام المراقبة في الإجلال وحصول الحياء من العلم باطلاع ذي الجلال وقد بينه بقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» أي أن غفلت عن تلك المشاهدة المحصلة لغاية الكمال فلا تغفل عما يجعل لك أصل الكمال فإن ما لا يدرك كله لا يترك جله، بل استمر على إحسان العبادة مهما أمكن فإنه يراك فاستحضر ذلك لتستحيي منه حتى لا تغفل عن مراقبته ولا تقصر في إحسان طاعته. قال الإمام النووي: معناه إنك إنما تراعي الآداب المذكورة إذا كنت تراه ويراك لكونه يراك لا لكونك تراه فهو دائما يراك فأحسن عبادته وإن لم تره، فتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه فاستمر على إحسان العبادة فإنه

يراك، قال: وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين وهو عمدة الصديقين وبغية السالكين وكنز العارفين ودأب الصالحين وهو من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وآله وسلم وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من التلبس بشيء من النقائص احتراماً واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله مطلعاً عليه في سره وعلانيته. انتهى. وثمرة هذه الحالة خشية الله وقد عبر في رواية الإمام مسلم بقوله: «أن تخشى الله كأنك تراه فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك» قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وذلك جزاء أهل مقام الإحسان، الذين يعبدونه على العيان. وفي مسند الشاميين للطبراني: قال: فما الإحسان؟ قال: «أن تعمل لله كأنك تراه فإن تك لا تراه فإنه يراك» قال: فإذا فعلت ذلك فقد أحسنت؟ قال: «نعم» وذلك مما أخذه الله تعالى على بني إسرائيل في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً يتضمّن الإحسان، والإسلام والإيمان مقدمتا الإحسان، فالإيمان تصديق ولا يكون إلا عن مشاهدة الخبر وذلك من معنى الإحسان، كما أن الإسلام انقياد ولا يكون الانقياد إلا لمن انقاد طوعاً وليس ذلك إلا لمن أحسّ بأن الحق آخذ بناصيته وهو من جملة الإحسان، قال تعالى ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي مُرهم أن يحملوا أنفسهم على الأخذ بالإحسان وتحقيق التوحيد، ونظيره قوله تعالى ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي تماماً للنعمة على الذي اتصف بالإحسان وحَقّقَ الوحدانية. وفي معنى الإحسان رَوى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قرأ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله

أعلم قال: «يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وإذا كان الإسلام علانية والإيمان في القلب فإن الإحسان موافقة العلانية للقلب بأن يعبد المؤمن ربه على وجه الحضور، فالإحسان يتضمن المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم والمجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق فيه النور وانقشع عن وجهه حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية وانكشف له سر الملكوت وانشرح الصدر فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه تعالى من الرحمة، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وخشية الله لا تكون إلا بالمعرفة كما حكى تعالى قول موسى لفرعون ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ورُوي عن موسى أنه قال: يا رب أي عبادك أخشى لك؟ قال: أعلمهم بي. والهداية: الدلالة على طريق توحيد الربوبية الموصل إلى المطلوب، ونظيره في الآية ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ وهذا يدل على علوّ مقام الخشية من الله وعلى عظيم كرامة أهل الخشية منه تعالى. قال الإمام الرواس قدس الله أسراره ورضي عنه وأرضاه: العالم التقي هو الذي يرجى له سانح الإحسان بتحقيقه في درجة الخشية، والشاهد ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ فحال التقوى يوصله إلى فهم حكمة العلم بمحض الفضل وهنالك يخشى الله...وكذلك قال تعالى لحبيبه عليه الصلاة والسلام ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ على أن الذكرى طارق من طوارق الحق يفرغ له القلب الوجل الخائف من الله الذي أخذته خشية الله عن غلظته فأنزلته منازل المتقين المقربين وإلا فأهل الشقاوة مجانبون لهذه المرتبة

متجنبون عنها والعارفون كلما نهضت بهم العناية فرفعتهم في منازل المعرفة وازدادوا قرباً ازدادوا تدبراً وتفكراً بأسرار الله وآثاره.

الفهرس

الفصل الأول: روايات الحديث 4

مقدمة 10

الفصل الثاني: خصوصية ورمزية نزول جبريل عليه السلام 14

أشراط الساعة العظمى 17

الفصل الثالث: حقيقة الحفاة العراة 27

يا بني إسرائيل 43

الفصل الرابع: الإسلام 45

الفصل الخامس: الإيمان 90

الفصل السادس: الإحسان 110

الفهرس 114

يتبع...

https://thelastpromise.org